

روايات هجرية للجنوب

أسطورة البيت

ماورا الطيعة



١٢

www.liilas.com vb3

ليلا



مقدمة

مرحباً ...

الدكتور (رفعت اسماعيل) أسنّاذ أمراض الدم
المتقاعد وهاوى الأثباح يتحدث إليكم ..
أنا الشيخ الوحيد المتهاك الذى يقضى أيامه الأخيرة
مسترجعاً ما كان فى شبابه من أحداث ، والذى قضى
ليلته جوار مومياء (دراكيولا) ، وصارع (العساس)
فى الصحراء ، وطارده لعنة الفرعون (أخيروم) ..
لقد ولّى أحبائى جميعاً .. وها هى ذى صفارة القطار
تعلننى أنهم جميعاً قد ركبوا وأن على أن الحق بهم إلى
عالم آخر ..

لكنى أتوسل لناظر المحطة - قلبى المتهاك - أن
يتركنى بضعة أعوام أخرى تكفى كى أفرغ ما بجعبتى
من حكايات ..

لكنه يقول لى فى تعلل وهو يجذب كسى :

- « لكن حكاياتك هى فى النهاية مجرد حكايات ..
ليست نظريات عمية ولا قطوف حكمة فنتركها للقادمين
من بعدك .. »

١ - دورى يا أيام ..

العام ١٩٦٧ ...

هل كان ذلك قبل أم بعد الحرب ؟ .. لا أنكر .. لكننى
أفكر أننى كنت أحيأ حياة بأسمة هائلة وقد استقرت
أمورى أخيراً ..
فلا بد - إن - أن هذه القصة وقعت فى الشهر
الخمس الأولى من العام ..

كنت - كما قلت لكم آنفاً - قد خرجت لتوى من
مواجهتى الشنيعة مع حارس مومياء الفرعون
(أخيروم) .. (هل تذكرون قصة البللورات والرجل
الغريب الذى يتعقب (هويدا) والعسل والبصل ؟) ..
وكان ذلك الشعور العجيب المنعش يتمسك إلى
روحى دون أن أدرى من أية نقوب يتمسك .. !

إنه الربيع ... !

أى ضمير فى أن يحب المرء خطيبته بجنون ؟ ..
أن يقضى الساعات يحلم بتعبيرات وجهها وهى تضحك ..
تقضب .. تهتم .. تحنو .. تتفلسف .. وأن يسهر الليل
محاولاً فهم ما كانت تريد قوله حين أخيرته بكذا ..
وكذا .. ثم ذلك الشعور الممض الغريب : محاولة

« لكنها مسلية أبها الرجل الطيب .. مسلية ! ..
والقسم على هذا .. »
عندئذ أراه يفكر .. ثم يعقد ذراعيه على صدره
ويغمغم :

« إن احك قصة مسلية أخرى .. ولكن بسرعة .. »
ويهز إصبعه فى وجهى محذراً :

« كنت لك أن تكون مسلية .. هه ؟ .. لقد
أندرتك .. ! »

فأهلل .. وأكاد ألتصم بديه لولا تصلب عظام ظهري
الذى يعوقنى عن الانحناء .. وأبدأ - على عجل - فى
سرد قصة أخرى ...

لقد وعدتكم أن أستكمل قصة (هن - تشو - كان) ..
لكننى لم أجد متى .. لذا دعونا نصغ لقصة البيت هذه
المرة ..

البيت .. يعرف كل شيء .. البيت يذكر كل شيء ..
البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام ..
وبوابته الصلدة مفتوحة من أجلنا ..
فهل ندخل ؟

كانت روماتسى ابنه كلما اشتمعت رائحة زهر البرتقال
تعمله أسام الربيع ..

أصلع الرأس .. نحيل كالبعوضة .. تحشّن صدره
أهجرة التبغ وآلام الذبحة الصدرية .. لكنك ... لكنك ...
لكنك - ويا خجلى منك يا د. (رفعت) - تحب !

* * *

كنت سعيدًا كطفل نسيه أبواه فى مخزن حلوى ..
أو أسد وسط قطيع من الحمير الوحشية .. أو خنزير
برى فى بركة وحل ..، أو أية سعادة تبدو قريبة لذهنك ..
وفى الكلية أصيب طلبتى وزملائى بالرعب من هذه
التغيرات التى طرأت على شخصى الكتيب المتشائم ..
ثم كانوا يفكرون هنيهة .. ويضحكون فى خبث :

- « أها .. ! .. إنه الحب .. إن العجوز (رفعت
اسماعيل) يحب .. ! » ..

فإذا ما أشعلت سيجارة صاحوا فى عتاب :
- « وهى .. ؟ .. ما رأيها فى هذه العادة السمجة ؟ »
وإذا ما أطلقت سبّة عابرة .. هنفوا :

- « ماذا ؟ .. ألا تخجل ؟ .. ماذا لو اتزلق لمساتك
أمامها ؟ ! » ..

أما شرود ذهنى فدليل جازم على فرط هيامى ...

استرجاع ملامحها فى ذهنك دون جدوى .. كأنك لا بد
أن تراها لتذكر وجهها ! ..

والشعور الممض الآخر : الشعور بأنها (ستندف) ! ..
الجنون المسعور الذى يعصف بأتزانك حين تدرك أنها
فى هذه الساعات تضحك وتقول كلامًا كثيرًا ليس لك
تصيب فيه ، كأن مخزونها من النظارة والرقعة سينتهى
بهذه الطريقة قبل أن تتزوجا ..

عندئذ تنهض - كالمسوع - الى الهاتف وتطلب
الرقم الحبيب ..

وتنتظر فى لهفة أن تسمع صوتها يتساعل ناصبًا
عما هناك ..

لو كنت تعرف وقتها أغنية (استيفى واندر) : « لقد
اتصلت لمجرد أن أقول إتنى أحبك ! » لو كنت تعرفها
وقتها لأشدتها عبر أسلاك الهاتف .. لكنك لم تكن
تعرفها .. ولهذا كنت تخلق أعذارًا على غرار : هل
نسيت مفاتيحي عندك ؟ .. هل زال الصداع عن رأس
والدتك ؟ .. ألخ ..

كنت تشعر أنك سخيّف ..
لكنه الشوق المجنون .. والوحدة الأليمة ، كالمذعوب
الذى يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر .. تتحول أنت الى

وذات مرة سألني الدكتور (رافيت) زميلي في حيرة :
« نبدل موقفك مائة وثمانين درجة .. ! »
« أي موقف ؟ »

« كنت تتزوج لمجرد أنك لا تجد شيئاً آخر تفعله ..
فماذا حدث كي يدعوك للتحمس ؟ .. ماذا قد جد ؟ »
« نظرت له في شرود ..
ماذا قد جد ؟ .. ياله من سؤال ! .. »

أنا نفسي لا أعرف السبب .. إننا غير مسئولين عن
مرضنا ولا عن عواطفنا .. فجأة نصحو من النوم للجد
أنا نهم بحب فلان أو لا نطبق فلانا .. فما هو المنطق ؟ ..
ربما هو التعود .. وربما هو شعور بالذنب بسبب
ما عرضتها له في قصة الفرعون إياها .. وربما هو
الامتزاج المشترك بيننا بعد المعاناة التي عشناها سوياً ..
وربما هو أنها لم تكن سينة إلى هذا الحد ...
لا أدري .. ومن أنا كي إدري ؟ ..

فقط سيطرت هذه الفساة على كل ملليمتر مربع من
عالمي ..
والأغرب هنا هو أنني لم أنس (ماجي) قط .. لقد
ظلت واقفة فوق أعلى ناطحة سحاب من مدينة ذكرياتي ،
وكانت تتوهج وتثاقق كعهدى بها ..

كل ما هنالك هو أن (هويدا) بدأت تكتسب المزيد
من صفات (ماجي) يوماً بعد يوم ! .. وحتى ضحكتها
كنت أرى فيها شبح ضحكة (ماجي) الحنون المشرية
بروح الدعابة ..
غريب هو ذلك العالم المتشابك الكامن تحت فروة
رأسي .. وأيضاً لن أتمكن من فهم ذلك الكائن الذي هو
أنا ..

* * *

« ماسر هذه الأرقام الفلكية في فاتورة التليفون ؟ »
« إن مكالماتك الخارجية كثيرة جداً يا دكتور ..
كثيرة جداً ! »

* * *

« إن هذه السيارة بالوعة بنزين ... »
« لا بد أن زيارتك للإسكندرية ثم تعد أسبوعية ..
بل زادت كثيراً ! »

* * *

« إن رسم قلبك لا بأس به يا دكتور رفعت .. إن
حالة قلبك لن تعوقك عن الزواج ولكن لا تنس ...
التبخين هو مسامير نضك .. »
« إن هو ليس نعثاً .. بل نباهة ! »

* * *

« ولكن .. متى تغير هذا المنظر الذي يجعلك تبدو
كالمعوهين ؟ »

« أنا أمقت التغيير يا (عزت) .. أمقته ! »

« الزواج هو أكبر تغيير .. ومن يجروء عليه يجروء
على كل شيء آخر .. »

* * *

« (رفعت) .. ! .. إنك تزداد رقة وهذا لا يروق
لي ! »

قالتها (هويدا) وأنا أسير معها في (محطة الرمل)
بلا هدف معين .. كانت ترتدى فستانا أبيض من
موضات الستينات الساحرة (كانت كل فتاة تبدو كأنها
بطلة فيلم من الأفلام الرومانسية ، وكل رجل يبدو كأنه
فارس أحلام) .. بينما ارتديت أنا قميصا ذا أكمام
طويلة ..

قلت لها وأنا أشعل سيجارة أمام نظراتها المتوعدة :

« ماذا تعنين ؟ .. كنت أظن عصيبتى كذلك
لا تناسبك .. »

« نعم ولكن ... »

وبللت شفتيها بطرف لسانها .. ثم أردفت في حيرة :

« .. لا أترى .. »

لكننى كنت أفهم ما تعنيه .. هى لا تملك الفصاحة
اللغوية التى تمكنها من أن تقول لى إنها تعودت على
توترى وعصيبتى وأرائى الساحرة .. ، وهذه الرقة
المبالغ فيها تجعلها غير مستريحة كأنها مع شخص
آخر ..

حمقاء هذه الفتاة ، لكن حماقتها محببة تلذ
للسامعين .. ، إن الأطفال ليسوا فلاسفة متصفين لكن
كل الفلاسفة يحبون محاوراة الأطفال ، لأنهم يستمتعون
بكل هذا الطهر والتقاء والبعد عن التعقيد ..

قالت (هويدا) وهى تجرع زجاجة المياه الغازية
التي ابتعتها لها :

« يبدو أنك لم تجد أشياحا فى الفترة الأخيرة .. »

« وهل هذا شيء يدعو للشكوى ؟ .. »

« وكلفت عن الأسفار .. »

« إنه الإفلاس .. »

ابتسمت فى غموض وهى ترمق لسراب طالبات
المدارس يهرعن للحاق بالترام .. وهمست بعد فترة
تردد :

« إنك تعيش حياة طبيعية هذه الأيام .. طبيعية أكثر
من اللازم .. وهائتذا رجل كالأخرين تذهب لـ (دمياط)

بعثاً عن الأثك .. وتتسلج مع السباكين .. و... و... و... ..
 - « لطالما تمنيت أن أصير كالآخرين .. »
 ضحكت في خجل وتاولتني زجاجة المياه الغازية
 لأعدها للبايع .. وهتلت :
 - « أضى .. بخول لي أن هذا هو نوع من الهدوء
 الذي يسبق للعاصفة .. اعتقد - وأرجو أن يخيب ظني -
 أنك مقبل على مصيبة .. ! »
 - « فال الله ولا فلك ! »
 - « سامحنى .. لكنى وثقة من ذلك .. إن هذا
 الكلبوس ... »
 - « كلبوس !؟ »
 - « نعم .. كلبوس أراه في كل ليلة .. »
 هاهي ذي تلك الحمقاء تحصب - كأكثر الناس - أي
 كلبوس يزورها بسبب أكلها الثوم في الغشاء ؛ تحسبه
 رؤيا صادقة شقافة قادرة على التنبؤ .. وما ذا رأيت
 يا (هويدا) هاتم بخصوصي في هذا الكلبوس المزعوم .. ؟
 - « رأيتك ممزقا إلى شلاء .. ! »
 - « لا بأس .. لقد رأيت نفسي في كوابيس أسوأ .. »
 - « .. وكانت الذئب تنهش جثتك ... ! »
 - « هذا هو التجديد الحق .. ! »

اتسعت عيناها رعباً ووضعت كفها على ساعدي ..
 وفي توسل همست :
 - « اسخر مني كما تشاء ولكن خذ الحذر ..
 أرجوك ... »
 كنت أشكرها على لطفها لولا أنها أردفت وهي
 تدفني للسير :
 - « ماذا سيقول الناس عنى إذا مالا في خطيبي الثاني
 حمله ؟ .. لا أريد أن يتهمنى الناس بالنحس ! .. »

 لم أزد عليها لأننى كنت أرمق في شروذ فتاة صغيرة
 ثقف في أحد مدخل البنات .. كانت ترتدى قميص نوم
 أبيض طويلاً وشعرها الأسود ينساب على كتفها ...
 نكرنى منظرها بشيء ما لا أتذكر ما هو بالضبط ...

* * *

www.liilas.com/vb3

www.liilas.com

٢ - الماضى يضحو ..

أنهيت جولتى فى العنابر مع تلميذى ممتنع الوجه
أحمر الأنف - نسيت اسمه للأسف - الذى يحاول أن
يدارى أغلاظه قدر الإمكان ، لكنى كنت أعرف جيداً
مواضع هذه الأغلاط لأننى كنت أرتكبها فى عنقه .. !
بالطبع لم يفحص براز مريضة فقر الدم بحثاً عن دم
مهضوم .. ناسياً - أو متناسياً - أن سبب فقد الدم قد
يكون نزفاً بالقناة الهضمية .. ، وبالطبع لم يفحص
نخاع الطفل المصاب بنزف الجلد ناسياً - أو متناسياً -
أن سرطان الدم احتمال وارد ...
كانت أذنا الفتى على وشك الانفجار من النداء
المحتشدة فهما حين انتهى لومى له .. وأنهيت جولتى
عادداً لمكتبى ...
وجلست أرشف القهوة وأتصفح الرسائل التى
وصلتلى ...
وكانت - كالعادة - رسائل من أشخاص يطلبون مالاً ..
أو يتوعدوننى بخراب بيتى .. أو من شركات أدوية تعتذر

عن عدم قدرتها على تحقيق شىء طلبته منها ونسيت
كمنه تماماً .. ، ثمة خطاب من (جوستاف نيكولسكو)
الصحفى الرومانى يتحدث عن المذعوبين ويقول إن
هناك قرى أخرى يبدو أنها تعانى منهم حقاً ،
وخطاب من (هارى شلدون) ينكرنى برحلة (جامايكا)
الكرهية .. ويدعونى إلى زيارة (تاهيتى) لتعرف
المزيد من أسرار الـ (فودو) ...

لقد مات الماضى يا رفاق .. لأن تعوا ذلك أبداً ؟
كان هناك خطاب أخير لم أدر من هو مرسله .. لكن
خاتم المظروف كان من (المنصورة) .. (المنصورة)
أول حب فى حياتى ..
بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور
مكتوبة بخط أتيق منسى .. كأنه خط امرأة أو خط رجل
يملك أصابع امرأة ...
« الأخ العزيز د. (رفعت) :
تحية طيبة .. وبعد ...
لسعدنى كثيراً أن أقرأ سطوراً عنك فى إحدى
المجلات الأجنبية التى يملكها زوجى . وقد تعرفت
الصورة فوراً . وقد تذكرت الماضى وحياتك هنا فى
(المنصورة) مع خالك رحمه الله .

وكنتم خير (جيرانا) لنا (هكذا في الخطاب) ولم
 (نرى) منكم إلا كل خير . هناك مشكلة في حياتنا
 يا د . (رفعت) اعتقد أنها تمسك بشكل أو بآخر وأرجو
 أن تلبى دعوة زوجي (محمد أيوب) وهو مهندس
 معماري للحضور الى (المنصورة) لفلاننا ومعرفة
 المشكلة .

أما لماذا لم (نأتى) نحن فلاننا نعرف أنك غير
 متزوج وخفيف الحركة ، ثم أن المشكلة عندنا هنا
 وليست عندك .

رأسي للأخوة (عماد) و (مدحت) و (عيبر) إذا
 كنت تراهم . وعلى فكرة عوائى سهل جداً وهو
 (.....) لكأن اتصل بنا بالتليفون قبل أن نأتى حتى
 نعد لك أكلة طيبة تعوض عظامك التى جفت من (طبيخ)
 العزاب . بالمناسبة رقم تليفونى هو (.....) .
 وشكراً جزيلاً ..

أختك .. « إلهام السوفى »
 أغلقت المظروف على الخطاب وشرعت شارداً الذهن
 أتأمل (تنوة) القهوة فى الفنجان ...

(إلهام السوفى) ! .. بالها من تكريات ... صحيح
 أن الأسلوب ركيك وملئ بالأخطاء التحوية .. ولكن هل



يد مرتجة فحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أيق

تتوقع من (إلهام) أن تعرف أن المضاف اليه يُجزر
ولا يتصب .. وأن تعرف أن الفعل المضارع الناقص
يُجزم بحذف حرف العلة .. بل - والأدهى - أن كلمة
(طبيخ) لا تناسب الفصحى !
غريب هذا ... !

كان هذا الجزء من ذاكرتى قد مات تماما .. وها هي
ذى تنكرنى بنفسها و (بالثقة) إياها .. و (عماد)
و (مدحت) .. إلخ .. أولئك الذين لو شيعت جنازاتهم
لما اختلف الأمر كثيرا .. فالحقيقة المروعة هي أننى
لم أر أكثرهم ولم أسمع اسم أكثرهم من ثلاثين سنة
تقريبا ..! تخيل أنت أن رجلاً يصفحك فى حماس
مؤكداً أنه الطبيب الذى أشرف على ولادتك ! .. فهل
ستذكر وجهه ؟ .. هل ستعرفه ؟ .. بالطبع لا ...

كان موقفى ساعتئذ قريبا من هذا ...

* * *

(المنصورة) حبى الأول ...

لق ولدت فى (الشرقية) لكنى عشت أجمل منى
حياتى فى (المنصورة) .. ولهذا لم أزل لأصب نفسى
فى عداد أبنائها ...

إن وطنك هو المكان الذى ارتديت فيه أول سروال
طويل فى حياتك .. ولعبت أول مباراة كرة قدم ..
وسمعت أول قصيدة .. وكتبت أول خطاب حب ..
وتلقيت أول (علقه) من معلمك أو خصومك فى
المدرسة .. وطنك هو المكان الذى ذهبت فيه للمسجد
أول مرة وحدك .. وخلعت حذاءك متحديا صديقك أن
يقف جوارك لتريا أيكما أطول قامه .. ، ووطنك هو أول
مكان تمرغت على عشبه فى صراع دم مع صديق لدود
من أجل فتاة لا تعرف شيئا عن كليكما .. !

لقد كان وطنى هو (المنصورة) وسيظل كذلك ..

مشاهد عدة أسترجعها .. أبى المتوفى .. تحيب أمى
وعجازه واحدة ترددها وهى تحرك رأسها يمينا ويسارا :
« كيف أربيهم ؟ .. كيف ؟ » ..

ثم خالى (عبد الرحمن) يعانقها ويعانقنى ويعانق
شقيقتى (رليفة) وأخى (رضا) والدمع فى عينيه ،
ويومها عرفت أن مصائرنا تحددت .. (رضا) أكبرنا
سنا سيظل فى (كفر بدر) ليرعى الأسرة ويطلع الأرض ،
وكذا (رليفة) لأنها فتاة ويجب أن تظل جوار أمها ..
ثم إن البيت فى القرية لا يستقيم دون امرأة حتى ولو
كانت طفلة .. ، أما عنى أنا ..

« اسمعى كلامى يا (فاطمة) .. (رفعت) ذكى
ويمكنه أن يفتح فى الدراسة .. ربما صار طبيباً
أو مهندساً أو ضابطاً .. وحرام أن تضيعى عليه فرصة
كهذه لمجرد أن يظل فى حضنك .. »
« ولكننا لا نملك ... »

« سيعود معى إلى (المنصورة) ليعيش فى
دارى مع (عماد) و (منحت) و (عبير) أبنائى ..
وكلهم فى مثل سنه .. ثم إنسى خاله .. والخال والد
يا (فاطمة) .. لا تسمى هذا ... »

كان الاختيار صعباً لكنه محتوم .. ، ولم تليث أُمى
أن استسلمت لرغبة خالى .. وكان الفراق مؤثراً إلا
أنى - كديهن الأطفال - لم أكد أبتعد عشرين متراً عن
دارى حتى جفت الدموع فى مقلتى .. ونسيت كل شيء
عن (كفر بدر) ..

كانت (المنصورة) فاتنة منذ اللحظة الأولى ولم
أستطع أن أخفى تبهارى .. لا تنس أنها أول ما رأيت
فى حياتى من مدن ..
ودار خالى الأبية - أوروبها هو ما رأته - والأصدقاء
الجدد الذين دخلوا عالمى ودخلت عالمهم ...
ولسنوات عدة - وحتى التحقت بالكلية - عشت فى

وطلى الجديد مكلفياً بزيارات قصيرة - (كفر بدر) مرة
أو مرتين فى الشهر ..
هى سنوات هادئة تلك التى عشتها هناك فى
(المنصورة) ..

لفظت بعض المغامرات الصغيرة كالفرار من المدرسة
إلى السينما، وتسلق سور فيلا، وصيد الأسماك التيلية
فى إحدى العزب القريبة ...

كنا أطفالاً نسكن فى شارع صغير ضيق تزينه
الأشجار العجوز على الجانبين وكانت الشمس تزخرف
أرض هذا الشارع بالظلال طيلة ساعات النهار وطيلة
فصول العام .. بينما نحن نزخرف جدرانها بأسماننا
ورسوم سانحة بالطبشور ونتأج مباريات كرة القدم
المحلية بنفس المنطق والفخر اللذين جعلنا (رسمين
الثانى) يزخرف جدران المعابد بالظلماته ..

كانت الحياة نمضى .. وكنا سعداء ...
والآن دعنى أعرفك شلتنا الصغيرة ...
أما هذا الصغير النحيل العصبى بمنظاره المسمك
الذى كسر أظاره وتم لحامه بالحرارة فهو أنا .. وكما
تلاحظون لم أتغير كثيراً سوى زحف الجذب على مقدمة
رأسى ...

أما هذان الطفلان الجميلان فهما (مدحت) و (عماد)
ابنا خالي .. وهما - كما لا بد أنك لاحظت - نوعان ..
الفتاة الأولى ذات الضفيرة والسن الناقصة هي
(عبير) ابنة خالي ، وهي شيطانة صغيرة خبيثة
لا تكف عن الضوضاء ..

أما الفتاة الثانية فهي (إلهام) صاحبة الخطاب ..
وإذا ظننت لنحظة أنها ولد بسبب شعرها القصير
وارتدائها البنطال فأعلم أن الكثيرين ارتكبوا الخطأ ذاته ..
ثم كانوا يسمعون صوتها الرقيق فيدركون أنها طفلة
نصر أمها على محاكاة موضة الـ (الاجارسون) التي
يترجمها (طه حسين) بـ (المسترجلة) ويترجمها
(العقاد) بـ (الغلامه) !..

كنا نلتقى في الشارع بعد سويغات المدرسة .. أو في
أيام الصيف فتبدأ في لعب كرة القدم أو المسابقة أو أية
لعبة أخرى .. ثم نعمل كل شيء فننقصل أياماً نعود
بعدها لذات الألعاب ...

وكانت طبقتنا واحدة هي طبقة أبناء الموظفين
(وهي طبقة محترمة في الثلاثينات) لهذا كان
تساجمنا نائماً ...

وكنا نتشاجر على الفوز برضا سيدة الأقماع السبع

وملكة (سبا) الشهيرة باسم (إلهام) إذا ما كنت تفهم
صراع الأطفال المضحك من أجل رضا فتاة ..

كان (عماد) يقلص وجهه ويأني بأصوات غريبة
من حلقه محاولاً إبهارها .. وكان (مدحت) يثب على
ذراعيه ويمشي مقلوباً .. وكنت أنا أرسم وجهها ..

الخلاصة أن كلنا حاول أن يربها أفضل ما فيه من
صفات .. لكنها - وهذا طبيعي - لم تر في التوعمين
سوى نسخة مكررة لبعضهما .. ولا معنى لأن تهتم
بأحدهما دون الآخر ، أما أنا فكنت الوحيد الذي لا شبيه
له .. لهذا لم تخف ميلها نحوي خاصة وأنا أقربهم سنّاً
لها .. وموضوع وفاة أبي قد جعلني - في رأيها - كالنسا
أسطورياً عركته الحياة وذائق من التجارب ما لم يذقه
هؤلاء المترفون !..

هكذا مرت الأيام ...

ثم لا أنكر أحداثاً معينة ذات بال ..

متى انفصلت هذه المجموعة ؟ .. لا أتري .. لكن هناك
لحظة ما كان محتماً أن تأتي .. ولم تعد الفتاتان معنا
في نفس المدرسة ... ولم نعد نرى (إلهام) لكننا كنا
إذا قابلناها مصادفة نجدها قد صارت فتاة أخرى .. حتى
شعرها صار طويلاً وكلفت عن ارتداء البنطال ، وكانت

بعد دقائق فطنت إلى أنني كنت أكلم نفسي وأردد عبارات قلتها في طفولتي .. وأضحك وأقطب استجابة للأعمال أشخاص لا وجود لهم ..!

لقد عثرت على (الهام) بعد كل هذه الأعوام .. وبعد أن بدأت الجدران المقامة بيننا تبلى وتتآكل ، وحين هوى الجدار الأول وجدت هي تلك المجلة اللعينة وقررت أن تكتب لي ...

تلك المجلة التي وقعت في أيدي (تاييتا) وجعلتها تلعب معي لعبة (ميدوسا) ود. (رمزي) وجعلته يدعوني لتسريح مومياء الفرعون ..

لو كنت ثريا لاشتريت كل نسخ هذه المجلة وأحرقتها .. لقد قضيت وطري من الفخر بصورتى القبيحة المنشورة بها ، ولم يعد هناك سوى دفع فواتير الشهرة .. ولكن

لماذا لا ألبى دعوتها ؟ .. إن (المنصورة) هي قطعة من روحي ، ولا بأس من أن يزور المرء الموضوع الذى فارق فيه روحه قبل أن يتزوج ويضيع للأبد ..

كنت قد وصلت لدارى ...

ودون أن أتزع ثيابى مددت إصبعى لقرص الهاتف .. وطلبت رقما ما ...

تطرق بعينها للأرض ويحمر وجهها معتمة أنها لا ترغب فى تبادل الحديث فى الشارع .. أو - أحيانا - تهز رأسها بتحية عابرة فاترة لا ود فيها ..

حتى فى دار خالى صار هناك نوع من الحصار حول (عبير) .. ولم أعد قادرا على رؤيتها فى محل وقت ولا دخول غرفتها كما اعتدت فى طفولتى .. وصار لخواها أكثر تحفظا فى الكلام عنها .

ونظرت للمرأة لأرى ما تبدل ...

فوجدت (رفعت) آخر ينظر لي .. عيناه لامعتان .. والزعج يملأ شفته العليا حتى خيل لي أنه جبار يمكن إزالته بأصبعي ..

لكنه لم يزل ...

لقد كبرت ...!

كنت أصرخ وأبكي .. إن كل طفل يسره أن يصير رجلا .. لكنى مختلف عن الآخرين ، إننى مستعد تماما للتخلي عن هذا الشرف مقابل أن تعود لبراءة ونقاء الماضى .. ليوم واحد فقط ...

فجأة امتلأت حياتى بالجنون ...

وأدركت - فى رعب - أن حياة الرجولة ستكون فلسفية حقا ..

كنت قلقًا في أثناء ذهابي للموعد المتشود ..
فقد تركت (المنصورة) منذ أعوام عديدة ، بعد
التحاقى بكلية الطب فى (القاهرة) و وفاة خالى .. وبعد
انتهاء واجب العزاء رحلت ولم أعد بعدها أبدًا .. نبتتُ
تمامًا فى حياة القاهرة حتى أنسى لم أحضر زفاف
(عبير) ولا زفاف أخويها برغم أننى تلقيت الدعوة ..
وبرغم أن (منحت) زارتنى فى دارى أكثر من مرة ..
لقد مزق رحيل خالى حبلًا متينًا كان يربط بيننا ..
كأننا سفن تمزقت حبال مراساتها لتضيع فى البحر
الواسع ولا تعود للميناء أبدًا ..

فقط عرفت أن (إلهام) تزوجت وتعيش فى مكان
آخر بالمنصورة ، وأن أولاد خالى لم يروها منذ أعوام
طويلة ، عرفت كذلك أن كل شيء قد تبدل فى المدينة
عما كان فى الثلاثينات السعيدة ..
لهذا .. شعرت بالرهبة والقلق ..
خشية ألا أعرف المكان .. وخشية ألا يعرفنى المكان ..

* * *

ودخلت مدخل البناية الأنيقة الظليل صاعدًا الى
الطابق الثانى لأقرع الجرس وأنتحج ..
هو ذا الباب يفتح عن وجه وقور لشيب الشعر كث
الشارب ، وخلفه لمحت امرأة بدينة بشعة المنظر تبسم
لى فى مودة غير عادية ..

— « أنا » ..

فنعالى صوتها فى مرح من خلف كتف زوجها :

— « أنت لم تتغير يا دكتور (رفعت) !! » ..

رحب به الرجل فى مودة — وبهد ثابتة مليئة بالثقة —
وقال باعتداد :

— « مهندس (محمد أيوب) .. مرحبًا بك ... » ..

ثم دعانى للدخول ..

كان الأثاث أنيقًا والأرض مكسوة بسجاد فلخر ..
ورثة رائحة عطرة فى الجو توحي لى بأنهم قاموا برش
مستحضر ما تحسبًا لقدمى ... ، والواقع أننى فهمت
أنهم استعدوا لزيارتى إلى حد كبير .. فالأثاث والنظافة
العامة توحيان بأنهما غير معتادين .. ومن المستحيل
أن يظل (الباركيه) لامعًا إلى الأبد فى بيت تعيش به
أسرة ..

حتى (إلهام) بدا واضحًا أنها تألفت قدر استطاعتها

وأجبرت زوجها على ارتداء بذلة أنيقة ، وبرغم هذا لم
أستطع أن أخفي ما شعرت به من غم إزاء ما طرأ على
جمالها القديم من تبدل .. هل حقاً كبرنا إلى هذا الحد
المفرغ ؟.. إذن كيف أبدوا أنا .. أنا الذي لم يتهمه أحد
بالجمال ؟..

أنا أعرف أن الزمن قاس ، لكنني لم أتصور مدى هذه
القسوة !..

وجلسنا ترشف الشاي وأكل قطع الجاتوه مرغماً
على حين أخذت تسألني عن أحوالي وعن السر في عدم
زواجي (ذلك الموضوع المحبب لدى الناس جميعاً
ولا يبدو أن عندهم غيره) ثم عن ميعاد زواجي بعد أن
لمحت خاتم الخطبة في خنصرى الأيمن ..

دخل الغرفة طفلان مزعجان يتكلسى المخاط من
أنفيهما قالت لى إنهما (مجدى) و (محمود) ابناها ..
تشرفتنا .. هل أنتما مجيدان فى الدراسة ؟.. إن (مجدى)
يحفظ الأرقام من واحد إلى عشرة ..

تراجعت للوراء راسماً أظفح علامات الدهشة على
وجهي .. وتساءلت غير مصدق :

« هل تقولين هذا لتثيرى ذهولى فقط ؟ » .

« بل هو الواقع ... » .

ونفش الطفل السخيف صدره وشرع يثلو الأرقام
حتى عشرة ، ثم أخذ يدور بوجهه يمينا ويساراً فى فخر
مبتذل .. الله ! .. أنت شاطر يا أخ (مجدى) .. ليس
هذا فحسب .. فإن (محمود) يجيد غناء أغاني (عبد
الحليم حافظ) ..

لئن ينتهى هذا الهراء ؟! ..

وهنا دخلت خادمة صغيرة مصابة بفقر الدم تدعونا
إلى مائدة الطعام فنهضنا ، وقادنى الزوج إلى الحمام
لأغسل يدي ووجهي ، ثم جلست على المائدة المرعبة
المزدانة باللحوم وعشرات الأنواع من الخضر
والسلاطة .. و .. قلت لها فى حرج :

« يبدو أنك توقعت أن الجيش البريطانى آت للغداء
معى ! » .

صاحت فى مرح وهى تصب لى الحساء :

« بل هكذا أكلنا كل يوم .. » .

يا سلام ! .. تريد أن تقتنعنى أن هناك بيتاً قادراً على
إعداد هذا الطعام يومياً فضلاً عن طهوه ..! إنه
التفاخر الأخرق الذى لا مبرر له ..

قالت لى وهى تأكل فى نهم :

« هل تذكر بيت (الخضراوى) ؟ » .

توقفت عن المضغ ونظرت نحوها في حيرة

* * *

« ما هذا البيت يا (عماد) ؟ » .

« إنه بيت (الخضراوي) يا (رفعت) ؟ » .

« لاحظت أنكم تبتعدون عنه في أثناء اللعب .. » .

« هكذا نصحنأ بابا ... » .

كان الإغراء قوياً ..

فالبيت — الشبيه بغللا من طابقين — كان يقف على حافة النيل بينما يتكاتف ضباب الفجر حوله فيجعله أشبه بوحش أسطوري ينتظر .. وفي أعماق تحرك شعور شهى .. الرغبة في المجهول والخوف منه ..

« فللنخل ... » .

صاح الأخوان في صوت واحد :

« سيرف بابا ويعلقنا ... » .

« إذن فلنتقرب منه أكثر ... » .

لم أكن أجد جسراً على الاقتراب وحدي وكنت محتاجاً لصحبة .. وفي تودة — كخمسة قطط صغيرة تسفل فارة — زحفنا نحو البيت ، أنكر هواء الفجر الندى المشبع بالمازوت (ولا أدري مصدره) .. وصوت الأعشاب تنهشم تحت أقدامنا .. والمنزل يكبر .. ويكبر .. ويكبر ...

لم يكن ثمة مخلوق في المنطقة سواها ، وكان السور العديدي الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تبرز منه ، ومن خلفه لمحنا غابة — أعنى حديقة — متشابكة الفصون والأوراق ، وأشجاراً لا أدري اسمها يلتف — كأنها تتلوى كأنما — حول بعضها البعض ..

كانت يد (إلهام) الصغيرة ترتجف في كفي .. وكان كفي الآخر يرتجف في كف (عماد) الذي كان كفه إلى آخر الدائرة ... وفي أعماقنا دوى صوت يهيب بنا مراراً أن نبتعد .. يجب أن نبتعد لقد مضينا إلى أهد مما ينهق وحان الوقت كي نهرب قبل أن نرى ما نخشاه ...

وهنا حدث شيء غريب ...

« لكنك لا تأكل يا د . (رفعت) ! » .

دوى صوت الزوج يهيب بي ألا أعرق في شرود الذهن ..

رفعت الملحقة التي لمي وقلت مواصلاً المضغ :

« بيت (الخضراوي) ؟ .. نعم .. أفكره طبعاً ... » .

قالت وهي تصفع أحد الطفلين كي يكف عن مسك الحساء على المفروش وتلطم الآخر كي يكف عن إعادة ما في قمه إلى الطبق :

« أنت تعرف أننا لم نعد إليه قط منذ ذلك
اليوم .. »

« همممم ! »

« .. حسن .. لقد عادت (شيراز) من جديد ! ..
سقط كوب الماء من يدي على مفرش المائدة ..
وشرعت في ذهول أرمق بقعة الماء تتسع تدريجياً ..
* * *

كالت البوابة الصدنة موارية غير مغلقة ..

ومن وراء فنتحتها كانت واقفة .. وحيدة .. رقيقة ..
لحيلة كزهرة .. فتاة صغيرة في مثل سننا ترتدى
قميص نوم أبيض طويلاً يصل لقدميها .. وقد عقدت
شريط العنق على شكل (فيونكة) صغيرة .. كان
شعرها أسود فاحماً كالليل ينساب حتى خصرها .. أما
عيناها فكانتا غريبتين .. لم أكن قد رأيت عينين
زرفاوين في حياتي ، ولقد أصابني الدهول وأنا أرى
فتاة تحمل في عينيها نجنتين من مياه البحر شديدة
الزرقة والصفاء والشفافية .. حتى أنني ساءلت نفسي :
« تبدو كالعبياء .. كيف نرى بهاتين المقلتين
الشفافتين ؟ »

وقفنا - كمن أصابنا من كهربى - على البوابة



وكان السور الحديدى الصدى الضبط بالبيت مغطى بالطحالب
الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تبرز عنه ..

عاجزين عن التفكير .. أما هي فقد فتحت البوابة أكثر ..
وعلى وجهها ارتسمت أعذب ابتسامة رأيناها في حياتنا ..
ثم سمعنا أجراس الملائكة تقول :

« تعالوا .. لا تخافوا .. هذا هو بيتي .. ؟ » ..

كان (مدحت) أول من استعد القدرة على النطق ..
فقال متلحماً :

« هل .. هل أنت بنت الخضراوي .. ؟ » ..

ثم ترد .. بل أشارت لنا للدخول ... ومدت يدها
البلورية تعانق (عبير) وتشمها على خدها :

« ما أجملك ! .. ما اسمك يا حلوة ؟ » ..

« (عب ..) (عبير) .. » ..

« اسم جميل .. وأنا (شيراز) .. صديقتكم .. » ..

« اسمك غريب لكنه جميل يا (شيراز) .. » ..

ثم إن (شيراز) عاتقت (إلهام) وهومت في رقة :

« لماذا تلبسين كالأولاد ؟ .. لكن — هل تريدان
رأبي ؟ .. — اعتقد أنك هكذا أجمل .. » ..

ثم صافحتني .. لن أتسى هذه اليد الباردة الشفافة
البلورية ما حبيت .. تعمدت عدم الضنط حتى لا أسمع

صوت الـ (كراشى) الذي أخشاه ! ..

وفي نهب دخلنا الحديقة معها نجرجر أقدامنا ..

كالت تقدمنا عبر الأشجار متجهة الى البيت ...
ولرعت الباب عدة مرات بمطرقة على شكل قبضة يد ،
فانفتح الباب عن خادم نوبى .. ثم إنها نظلت ونحن
لحلها إلى مدخل أنيق تحفه المرابي والتحف ...

الغريب أن نسيج العنكبوت كان يغلف كل شيء ..

فهل هم لا يملكون ما يزيلون به هذا النسيج ؟

* * *

« آسف جداً .. لكنى لا أفهم كيف عادت ؟ » ..

قالت (إلهام) وهي تضع منشقة على مفرش المائدة
لوقى الليل الذى حدث :

« أمين. مررت بالصدفة — فى الصباح الباكر —

جوار البيت فوجدتها واقفة جوار البوابة .. وكانت

لضحك لى ! » ..

« غريب هذا .. ! » ..

« لماذا لا تأكل يا د. (رفعت) ؟ » ..

« لقد شبعت تماماً .. ولكن .. هل حدثتها ؟ » ..

« بالطبع لا .. لم أجزؤ على ذلك .. » ..

« ولما ؟ .. بعد هذه السنوات .. هل تزوجت ؟ » ..

« مستحيل أن تكون قد تزوجت يا د. (رفعت) .. » ..

سألتها وأنا أشعل سيجارة :

— ولماذا؟.. لا بد أنها قد صارت عروساً فانتلة .. «
قالت في برود وهي تصبّ بعض الخضر في طبق
طفلها :

— « ابن (شيراز) ياد . (رفعت) — بعد كل هذه
الأعوام — لم تزل طفلة !! » .

* * *

www.liilas.com/vb3

www.liilas.com/vb3

٤ - الفتاة التي لم تكبر ..

- « ماذا؟ .. ماذا تعنين بالضبط؟ »

- « أعنى ما سمعته .. الفتاة ظلت طفلة كما عرفناها .. »

نفتت دخان السجارة وتاملت التبغ فى شرود .. ثم سألت :

- « تعنين أنها مصابة بنقرم هرمونى؟ .. خلل فى الغدد مثلا؟ »

ضحكت فى سخرية وهمست :

- « ألا تنسى أنك طبيب أبدأ؟ .. أنت تذكر تلك الأيام وتلك الفتاة .. وتعرف مثلما أعرف أن الأمر أخطر من هذا ... »

- « تعنين ... »

نظرت إلى عيني زوجها ثم إلى عيني .. وهمست :

- « أعنى أن هذه الفتاة لم تكن طبيعية ... »

* * *

نحن أيضا شعرنا بذلك ونحن نجتاز مع الفتاة صالة دارها ..

العنكبوت في كل مكان وكذلك جو العظمة الغابرة ...
وكانت هناك امرأة تغف جوار مائدة طعام عملاقة ..
امرأة شعرها بلون الجليد .. ولها وجه رقيق ملىء
بالتجاعيد (ليس من دين الأطفال ملاحظة الثياب تكنس
أعتقد أن ثيابها كانت فاخرة) .. وما إن لمحتنا حتى
هشّ وجهها وبشّ وتقدمت نحونا :

« أصدقاء (شيراز ؟) .. مرحبا بكم .. إن أصدقاء
ابنتي هم أبنائي .. ومشكلتي هي أنها لا تجد أصدقاء
من سنّها .. ما أسماؤكم يا حبايبي ؟ »

« (رفعت) .. »

« (عبير) .. »

« (بهام) .. »

إلخ .. ثم إنها اجلسنا على المائدة وقدمت لنا
(جيلي) أزرقي اللون شهى المذاق إلى حدّ غير عادي ،
وشرعت تسألنا عن أهلنا ومدارسنا وأحوالنا .. ثم
سألتنى :

« لماذا لم أركم من قبل ؟ .. »

تحنّحت .. وبمرح قلت :

« الواقع أننا ... »

ابتسمت في رقة ورهبت على كتفي :

« لا نكل .. دعني أضمن .. اعتقد أن أهلكم يحرمون

عليكم المرور هنا ... »

« الواقع ... »

« .. فليكن ...! لا داعي أن تخبروهم بشيء ..

ولكن كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلّي من وقت

لآخر .. »

وقدمت لي طبقا مليئا بالشليك (الفراولة) ..

* * *

أنهيت التهام الشليك الذي قدمته لي (بهام) وقلت :

« الواقع أن كل شيء كان غريبًا هناك .. إل (جيلي)

الأزرق والشليك في (نوفمبر) ورائحة الجو .. »

« بالذات رائحة الجو ... »

ثم نظرت إلى ابنتها .. وهتفت :

« (مجدى) .. إذا كنت قد فرغت من طعامك فلتعد

لعجرتك .. »

* * *

« نعم .. فرغنا من طعامنا ويجب أن نعود ... »

قلناها في حرج للألم التي فلاتنا إلى الباب الخارجى

ومعها طفلتها الحسناء ..

وفتحت لنا البوابة فدوى ذلك الصرير البارد ..

« مع السلامة يا أحباب .. »

« مع السلامة .. »

وخرجنا لا نلوى على شيء .. لكننا كنا محبوسى
الأنفاس مبهوتين بهذا العالم الغامض الذى لم نر مثله
من قبل ..

لم نثرثر ولم نتبادل الآراء لكننا عرفنا جميعًا أننا
سنعود وأتينا لن نحدث الكبار عن شيء .. أما (شيراز)
فظل مذاقها فى تفورنا وأرواحنا كحبة (شليك) حمراء
باردة تبلورت حبيبات السكر على مسامها ..

وقبل أن نبتعد عن البيت صاحت (عبير) فى حيرة
وهى تشير إليه :

« هل لاحظتم شيئًا غريبًا ؟ .. »

« ماذا تعنين ؟ .. »

« إنها ساعات النهار الأولى والطيور تتزاحم فوق
الأشجار .. لكننى لا أرى طائرًا واحدًا فوق أغصان هذا
البيت ! »

* * *

« هل تذكر فرار الطيور بعيدًا عن حديقتهن ؟ .. »

« والقطط الضالة .. »

قال الزوج وهو يضع الأطباق بعضها فوق البعض :

« الواقع ، أنكم كنتم شديدي البراءة .. لقد فعلت

الطبيعة كل ما تستطيع فى تحذركم من أن ما يجرى فى

هذا البيت مريب .. لكنكم لم تفهموا .. »

* * *

نعم لم تفهم ...

وفى الأيام التالية صرنا نذهب للبيت .. أحيانا فى

النهار وأحيانا بعد الغروب ، وكانت (شيراز) دائمًا

هناك واقفة خلف البوابة الصدنة ..

وكعادتها تضحك وتلثم الفتاتين وتقودنا للدخول ..

ويبدأ اللحم ...

لعب لا حصر لها .. المسافة .. لعبة الأوغال ..

صيد السحالي الصغيرة (لم يكن يلعبها سوى الصبيان

بطبيعة الحال) .. لعبة الكرة .. تسلق الأشجار .. وبعد

ساعتين كنا نفارق البيت غارقين فى العرق تختلج

السعادة فى أعصابنا ، نتمنى أن نموت فلا نبعث إلا حين

يأتى موعد الغد ..

* * *

« (شيراز) .. أنا أحبك ! »

« (رفعت) .. كف عن هذا وإلا أخبرت ماما ... »

« ساموت إذا ما طلبت أنت منى ذلك ! » .

« إذن .. مت ! » .

فأمسك بقتبي وأتلوى ألما ثم أسقط على الأرض فوق
الأغصان المهشمة والأوراق الجافة .. صوت التهشم ..
« هانذا قد مت كما أردت .. والآن هل تحيينى !؟ » .
فتركل جسدى الممدد على الأرض فسى دلال ..
وتصيح :

« كاذب رعدي ! .. وملاذ عن (إلهام) ؟ » .

أصيح وأنا أغمض عيني من جراء أشعة الشمس :

« لم تحد تعينى قط ... » .

« سأخبرها .. ! » .

عندئذ أنسى دور العاشق اللاتينى الذى ألعبه وأنهض

ملوحاً بقبضتى ..

« حاولى أن تقولى لها شيئاً وسأكسر رقبته ! » .

لكنها تكون قد تركنتى وانطلقت تجرى بين الأشجار

واضعة كفيها على قفها كمكبر الصوت .. وهى تصيح :

« إسمعى يا (إلهام) ! .. (رفعت) يقول ... » .

« أكرسى يا مجنونة ! .. » .

وأكون قد لحقت بها وأمسكت به .. بمرفقها وجذبتة

بلاوة فيختل نوازنها وتسقط على رأسها سقطة قوية كاد
فوادى ينخلع لها ... أدركت دون جهد أنها - ولا بد -
جرحت جرحاً بليغاً وسيكون موقفى عسيراً أمام أهلها ..
وأمام أهلى .. وأمامه .. !

ساعدتها على النهوض وأنا أعنذر بعنف .

« سامحيتى ! .. كنت أمزح .. ! » .

المقت والام فى لجة العينين الزرقاوين كأنما ألقى
لبيهما حجر .. تمسك بجبهتها ولا ترد .. لكنى أرى
الجرح بوضوح تام يشق جلد الجبين البلورى ..
والغريب هنا أننى لم أر قطرة دم واحدة ! .. ولا قطرة
.. كأنما الجرح فى قطعة من الشمع ..

« إنه لجرح كبير .. يجب أن تذهبى للمستشفى

حيث ... » .

« لا ... ! » .

قالتها فى حزم وصرامة .. ثم أسندت بعض خصلات

الثيل الأسود فوق الجرح ونهضت فى كبرياء وأنا

وراءها خزيان ..

كان الجرح يمنعى من توجيه الأسئلة .. أسئلة لا بد

منها عن الجرح الذى لا ينزف دماً .. لهذا تنلسيت

القصة كلها وعدت أحاول اكتساب رضاها ..

وتوسلت لها مراراً ألا تخير أمها أتني السبب ...

« أنت جبان ... » ..

« نعم جبان جداً .. ولكن ليس خوفاً من العقاب بل

خوفاً من الجرح .. » ..

ضحكت في دلال وهزت شعرها نلغانياً ، قائلة :

« أنت تجيد تبرير عيوبك ... ! » ..

غريب هذا ! ..

لم أكن في هذه المرة قادراً على رؤية الجرح ! .. ،

لقد سقطت خصلات الشعر التي تداريه .. وها هو ذا

الموضع أمام عيني .. لكنني لا أرى الجرح ! .. لا أراه

والسبب على ذلك ..

* * *

قالت (إلهام) وهي تصب الشاي :

« أكثر من مرة جرحت الأشخاص يدها أمامي ولم

أر دماً .. » ..

قلت في دهشة :

« لاحظت ذلك أنت الأخرى ؟ .. ولم لم تخبرينا ؟ » ..

« إن الأطفال يرون أشياء كثيرة لكنهم لا يحاولون

تفسيرها .. » ..

تناولت قح الشاي منها شاكراً ووضعته أمامي ..



لكنني أرى الجرح بوضوح تام يشق جلد الجين البلوري ..

والغريب هنا أنني لم أفر قطرة دم واحدة ؟ ..

أفضل أن يكون الشاي في كوب لكنى لم أجروا على طلب ذلك منها .

قال زوجها وهو يتناول قذح الشاي الخاص به :
تقول (الدمام) إنك كنت مدلها في حب (شيراز) ..
غمغت (إلهام) وهي ترفع حاجبها الأيسر في تهكم :
« ليس هو فقط .. بل و (سامح) و (عماد) .. »
كذلك .. »

* * *

آية أم مرقت القلب الصغير - قلب (إلهام) - وهي تفقد عرشها ببطء ..

لم تعد ملكة (سبا) ولا سيدة الأقمار السبع ولم يعد الأولاد الثلاثة يصطرون من أجلها .. ولم يعد أحد يهتم بمعانيتها على نسلق الأشجار أو عبور الحفر العميقة .. ومنذ شهرين لم يسطأ أحد على الفيلا المجاورة ليسرق لها وردة حمراء من الحديقة ..

لقد احتلت اللعينة (شيراز) كل جوارحنا .. ولم نعد نتقابل إلا من أجلها .. ولا نمزح إلا من أجلها .. ولا نتحدث إلا عنها ..

كل الورد الأحمر وقطع (الكازمیل) ورسومي صارت لها وحدها .. حتى ضرس (عماد) المخلوع

المسوس احتفظ به ليريه لها وحدها .. ولم يره أحدنا برغم نوسلاتنا ..

كان القلب الصغير يطفح بالأمم وبالحمم وبالصدید أعلها ظلت صامتة تنظاها بالمرح .. كانت (إلهام) تنظ ..

ولم تكن قادرة على الحقد على (شيراز) لأنها كانت أولها في كل شيء بثياب الفتيان التي ترتديها وشعرها القصير والسن الناقصة التي تظهر إذا ابتسمت .

القلب الصغير يطفح بالقطران والدخان الأسود .. إلى أن جاء اليوم الذي انفجرت فيه ..

كنا نعب الـ (سيجة) على الأرض .. نحن الثلاثة ضد (شيراز) وكانت (عبير) تراقب الموقف في خبث .. وهنا سمعنا صرخة .. صرخة روح تحترق :

« أنتم جميعا هنا من أجلها .. لا أحد يريدني .. ولم يعد أحد يعابى بي ! »

كذا صرخت (إلهام) وهي تركل الأرض مبعثرة رفة (السيجة) التي رسعناها بالطبشور ... ثم رفقت والدمع يتفرق في عينيها :

« ليكن .. سأعود لداري ولن أتى هنا أبدا .. ! »
وليس هذا كل شيء ..

« وسأخبر كل الناس أنكم تأتون هنا ! » .

وقبل أن نفهم ما حدث كانت قد فرت جارية من الحديقة .. صورة مصغرة للانتقام .. (سالومي)
الطفلة دامعة العينين تهرول في الطرقات عازمة على خراب بيتنا !

* * *

« كنت غيوراً جداً والحق يقال .. » .

قالت (إلهام) وهي تبتسم في حرج :

« كنت (فتاة) جداً .. هذا هو كل شيء .. » .

« وجلبت الوبال على رؤوسنا .. » .

« على وعلى أعدائي ! » .

رشفت جرعة من الشاي وأنا أسمع صوت خالي
بنادينا بعد أن فرغ .. هو الآخر - من رشف الشاي ..

* * *

وقفنا - أنا و (عماد) و (منحت) و (عبير) - محمري

الآذان أمام خالي بانتظار كلمته الأخيرة .. بينما يتبادل
وزوجته نظرات ذات معنى ..

ثم قال في تودة :

« عرفت من أم (إلهام) أنكم تذهبون إلى بيت
(الخضراوي) .. ألم أتكم عن ذلك ؟ » .

ساد الصمت البليغ ليضع ثوان ...

« كم مرة ذهبتم هناك ؟ » .

« .. » .

« كم مرة ؟ .. ثلاث مرات ؟ .. أربعا ؟ .. عشرا ؟ .. » .

« .. » .

« أكثر من عشر مرات ؟ » .

ولحمر وجهه كعريف الديك - وأوشك على الكلام

لولا أن تدخلت زوج خالي :

« لحظة .. ماذا رأيتم هناك ؟ » .

بحرج شديد وارتباك بدأتنا نحكى كل شيء .. (شيراز)

والأم والخادم النبوي وغيرها (إلهام) .. إلخ .. إلخ ..

كان الاهتمام يتزايد على وجه خالي ، والرعب ينمو

في سحنة زوجته ، وثمة نظرة جانبية ذات معنى

تبادلها .. ثم عادا ينظران لنا ..

نهض خالي - بعد ما أنهينا القصة - إلى المكتبة

فتناول المصحف مذهب الأطراف وعاد به ليضعه على

مائدة الطعام .. وسألنا :

« ما هذا ؟ » .

« مصحفا .. » .

« إذن أقسموا عليه إنكم لن تعودوا إلى هذا البيت

ما دمت أنا حياً .. » .

— « ولكن ... »

— « لا لكن .. إنكم لا تعرفون ربع ما نعرفه نحن
الكبار عن ذلك البيت .. واقسم بهذا الكتاب الكريم إن
من لا يقسم منكم على ما أقول سينال أشنع عقاب ...
لم تكن أمامنا حيلة ...

أقسمنا .. والدمع في عيوننا .. وثمة شعور عام أننا
قد خننا (شيراز) وخنلناها .. وأدركنا أن حياتنا من
دونها ستكون أقسى وأكثر ملاء ..

* * *

إلى هنا والقصة لم تزل عادية ...

لكن الأقاويل تتناثر هنا وهناك ..

ولا يمكن لسراً أن يظل في قبره ..

لقد جاء اليوم الذي عرفنا فيه سرَّ قلق خالي وذعر

زوجته ..

وكانوا محقين ...

لقد توفيت زوجة (الخضراوى) وابنته (شيراز)

وكل خدم البيت في حادث غامض عام ١٩٢١ ..

وبالتحديد .. قبل أن ندخل نحن البيت بخمسة عشر

عاماً .. !

* * *

٥ - لماذا عادت ؟ ..

قال لي زوج (إلهام) :
- « ألم تشعروا بالخوف ؟ » -
نظرت نحو (إلهام) نظرة ذات معنى .. ثم قلنا في
صوت واحد :
- « بلى .. شعرنا به بعض الوقت ثم نسينا الأمر
برمتنا .. » -
أردت أنا في صوت خفيض :
- « إن عواطف الأطفال سطحية جداً ولا تدوم أكثر
من دخان التبغ .. » -
- « ربما كانت دهشتنا أكبر بمراحل من خوفنا .. » -
سألت الصمت بضع دقائق .. ثم إنني رفعت عينا
متوجسة نحو (إلهام) .. حتى هذه اللحظة لم أفهم كنه
المشكلة .. هي مجرد ذكرى مرعبة وانتهت ولم يعد
هناك ما يدعو للقلق ...
ربما رأيت (شيراز) .. وربما هوجنت بكونها لم
تكبر .. فما الغريب في كل هذا ؟ .. لقد تأكدنا تماماً من

أن (شيراز) شبح .. شبح من عالم الطفولة لا يراه
سوى الأطفال ويخشاه الكبار كثيراً .. فما هو الجديد
إبن .. ؟ ..

قالت (إلهام) وهي تنظر للأرض باحثة عن كلمات :
« كانت الأمور مستقرة تماماً على ما عهدناه .. ثم
بدأت أشياء مريبة تحدث .. »

« مريبة ... ؟ .. »
لعتت شفيتها بنساتها .. وهمست :
« أعتقد أن (شيراز) قد تركت البيت باحثة
عنا ! »

* * *

« (مجدى) ! .. تعال واحك لأونكل ما رأته ! »
اللعة ! .. هل يجب على أن أستمع لهذا الوغد
الصغير مرة أخرى ؟ ..

ها هو ذا قادم حاملاً كتاباً دراسياً وقد بدا عليه الفخر
الصبياني المبتذل لأهميته ..
سأل الأب ابنه وهو يديره نحوى :

« ماذا رأيت الأسبوع الماضي ؟ »
« رأيت الأسد فى التليفزيون .. »
« ليس هذا يا أحمق ! .. احك ما رأته فى الشارع
المجاور .. »

« بلع الصبي ريقه .. وبعتم :

« رأيت فناة .. »

« وكيف كان شكلها ؟ »

« رفع الطفل يده إلى رأسه محاكياً شعر الأنتى :

« جميلة جداً جداً .. شعرها أسود .. وعيناها

زرقاوان .. »

« نظرت لى (إلهام) نظرة عابرة معانها — حتماً —

(ألا يذكر هذا الوصف بشيء ؟) .. ثم ظلمت منه أن

يستمر ..

« كانت ترتدى قميص نوم أبيض .. و ... »

« .. ؟ .. »

« ظلمت منى أن ألعب معها .. لكنى خفت منها .. »

« .. ولماذا ؟ .. »

« سمعت عيناه زعباً وأرجع رأسه للوراء :

« لا أدرى .. خفت منها .. »

« نعم .. ولكن لماذا ؟ »

« ضيق عينيه فى توتر .. وقال :

« ربما .. ربما لأنها لم تكن تترك قلباً على

الأرض ! »

« تبادلته وأبوه نظرة حيرى .. لكن (إلهام) لم تتوقف

عند هذه النقطة بل واصلت الاستجواب :

« وماذا قالت لك بعدها ؟ » .

« طلبت أن أتقل تحياتها لأمي ! » .

عند هذا الحد وثبت (إلهام) فى مقعدها وقد بدت على ملامحها إشارات الظفر .. وهتفت :

« هل رأيت ؟ .. إنها تذكرنا ! » .

قلت فى حيرة وأنا أشعل لفاقة تبغ :

« من هى ؟ » .

« (شيراز) طبعاً .. لا أظنك بهذا الحمق .. » .

حككت رأسى فى شرود مخمفماً :

« الواقع يا (إلهام) أتنى لا أجد الأمور بهذا

الوضوح .. إن القصة كلها تبدو لى نوعاً من الخلط .. » .

« بل هى واضحة كالشمس .. » .

وضربت الطفل على ردفه ليعود لحجرته .. ثم استنطرت :

« بعد كل هذه السنوات لم تزل الفتاة تستشعر

الوحدة .. ولم تزل تبحث عن أصدقاء الطفولة .. أو

على الأقل - تبحث عن أبنائهم ... ؟! »

« الأترين فى هذا نوعاً من المبالغة ؟ » .

نهضت فى تودة لتضوء المصباح النيون المعلق

فوق رءوسنا .. والضوء الأبيض التنظيف يغلف الوجوه

وقطع الأثاث .. وهمت :

« .. (رفعت) .. يجب أن نبحث عن الآخرين .. » .

« الآخرين ؟ » .

« نعم .. أولاد خالك .. » .

« فكرة لا بأس بها .. ولكن لماذا ؟ » .

« يجب أن نعرف لماذا عادت (شيراز) ؟ وما الذى

أفعله منا ؟ » .

فالتها وابتسمت ابتسامة لم أتر مغزاها ...

* * *

قلت لـ (شيراز) وأنا أتأمل مشهد الغروب :

« (شيراز) .. أنا أخاف الغروب .. كأننى أرى

مصرع الشمس .. » .

الشمع الضوء الأرجوانى فى لجتى عينيها الزرقاوين ..

وهمت :

« الشمس لا تموت عند الغروب يا (رفعت) ..

بل تذهب لتنام فى دارها بعيداً بعيداً .. » .

كنت أرنجف كالورقة وخصلات شعرها الأسود تلمس

أنتى :

« (شيراز) .. أنا خائف ... » .

« خائف وأنا معك ؟! » .

لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذى ينتابنى

أحياناً .. لم أجزؤ أن أخبرها أنتى خائف لأنها معى !

* * *

مددت إصبعي إلى قرص الهاتف وضغطت على
السماعة ما بين أذني وكنتى لأتمكن من تقلاب دفتر
الأرقام الصغير ..

هاهو ذارقم (مدحت) .. ٣ .. ١ .. ٤ .. ٢ .. ٥ .. ٦ ..
صوت الرنين المنقطع ثم صوت طفلة تتحدث بأسلوب
الأطفال الناعس المتراخي .. ماذا تريد ؟؟ بابا ؟؟
ماذا تريد من بابا ؟؟ إلخ .. ثم صوت رجل يضحك
ويبتلول السماعة منها ليسألني في رصانة عن شخصي
.. ثم ...

« (رفعت) !؟ أيها النذل العجوز !. أين ذهبت ؟ » ..
« أنا أتحدث من (المنصورة) .. من عند
(الله ...) .. مدام (إلهام) .. » ..

ارتفع صراخه الودى في الهاتف يحلف آلاف الأيمان
إلى لاهد ملتقيان .. أعطيته العنوان وطلبت منه أن
يحضر (عماد) و (عبير) معه لأن هناك موضوعاً
ملحاً لابد من مناقشته .. حاول الاتصال أو التأجيل لكني
كلفت مصراً كالخريت .. من ثم وعدني بأن يحضر
أباه وأخته وزوجته وأخيه وزوج أخته والأولاد
جميعاً .. و ..

« أ .. (مدحت) .. إن الموضوع جدى وخطير ..



لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذي يتهاوى أحياناً ..

لم أجروء أن أخبرها أنني خائف لأنها معي ! ..

وليس حفل تعارف لنادى الـ (روتارى) .. حاول أن
تأتى أنت و (عماد) و (عبير) فقط ، على الأقل حتى
لا ندمر شقة مضيقي ... »

« فليكن ... »

ووضعت السماعة وهزأت رأسى للزوج و (إلهام)
أن قد تم الاتفاق دون خسائر .. وسيكون موعدنا هذا
المساء ..

* * *

وكانت الأم تقطع لعينا أحياناً لتحضر لنا صينية
عليها أكواب عصير البرتقال الأخضر اللون (!!) ..
أكواب باردة تكاثف بخار الماء على زجاجها .. فكنا
نرشفها فى نهم وسرعان ما تتكاثف قطرات العرق على
جبيننا .. وتضمرنا التشوة ..

« برتقال عصيره أخضر وجيلى أزرق ! .. لا يوجد
شء واحد طبيعى فى هذا البيت .. »

قالتها (إلهام) وهى تتأمل كوبها فى فتور ..

« لكن هذا هو ما يجذبنا إليه .. أليس كذلك ؟ »

« بلى .. ولكن »

* * *

ولكن اللقاء كان حاراً فى شقة (إلهام) ...

إلهام هالى الأعراء .. لقد تبدلوا جميعاً لكن الماضى
ما زال فى أعينهم ..

فان (عماد) قد صار مهندساً .. و (منحت) معلماً ..

و (عبير) ربة بيت غير عاملة .. ازداد التوعمان

بدانة وازدادت أختهما ضموراً ..

وفى الصالون بدأنا المناقشة ...

فى مقابلة ذكرتهم (إلهام) بذكرتنا المشتركة

العربية .. قصة (شيراز) وأمها والمساة التى

سببها لنا (إلهام) بغيرتها الشديدة ..

ثم إنها بدأت تحكى التطورات الأخيرة .. وأنهت

مخاطبتها قائلة إن هناك ما يدعوها للاعتقاد أن (شيراز)

قد عادت تبحث عنا ...

(عبير) كانت أول من تكلم .. فصرخت فى استبشاع :

« كلك يا (إلهام) أرجوك .. لقد حاولت نسيان

هذه القصة .. وكنت أتجح لولائك .. »

وهز (منحت) رأسه فى استخفاف :

« لهذا طلبت لقاءنا ؟ .. كنت بلظن الأمر أشد

هولاً .. »

أما عن (عماد) فلم يأت باعتراض معين .. ثم إنه

رفع رأسه نحونا فى قلق وهمس :

« لم أرد أن أخبركم كسى لا تقولوا ابنتى معصوه ..
 لكن ما دمتم ترون ذلك وتشاركوننى الرأى فابتنى .. »
 قلت له فى غيظ :
 « عم تتحدث بالذات ؟ »
 ابتلع ريقه متحاشياً نظراتنا .. وغمغم :
 « عن (شيراز) بالطبع .. لقد رأيتها ابنتى منذ
 خمسة أيام .. »
 « هكذا ؟؟ وهل دعيتها لمشاطرتها اللعب ؟ »
 « كان هذا عسيراً ... »
 ثم رفع عينيه إلى وجهى .. وأردف :
 « نقول ابنتى إن الفتاة التى قابلتها كان لها نابان
 حدان .. وكان لساتها مشقوقاً كالأفاعى ... »
 * * *

www.liilas.com/vb3

www.liilas.com/vb3

٦ - الملاك المقترس ..

تربعت على الفراش مرتدياً منامة (عماد) أخذت
 سيجارتي الأخيرة (سيجارة ما قبل التوم وليس الموت
 طبعاً) حين دخل (عماد) الحجره ..
 لما إن شاهد سحب الدخان حتى أخذ يلوح بيده فى
 الهواء كمن يخنق .. وهتف وهو يسعل :
 « ماذا أقول فى طيب يدخن كأوتوبيس الأريلف ؟ »
 « نفس التعليق السمج الذى لا أسمع غيره .. ابنتى
 أخذت لأنسى ضعيف الإرادة مزعزع الشخصية مختل
 النفسية .. فهل هذا ما تريد قوله ؟ .. »
 « بالحرف الولحد ! .. »
 « إذن قد أرحتك من الشرثرة .. والآن هلم اجلس
 وأل لى ما يدور بخلدك .. »
 تربعت على الفراش جوارى وبدأ يشرح لى مخاوفه ..
 كان الليل قد انتصف حين اندس تحت الغطاء جوارى
 للمركت فى هلع أنه سينام معى على سبيل الترحيب ..

إنه بينه فتن أجرؤ على أن أطرده من الحجرة لينام
 في أى مكان آخر .. وزوجته تظفر مع ابنته فى الفراش
 الآخر باعتبار هذا هو التنسيق الوحيد الممكن حتى
 لا ينام أحدها على الأرض ... وبعد دقائق بدأ صوت
 شخير المزعج فأيقنت أنه لا نوم فى هذه الليلة
 السوداء ...

* * *

تك تك !.. تك تك !.. خ خ خ !.. تك تك !.. خ
 خ خ !

طريف هو امتزاج صوت شخير مع صوت محرك
 الساعة .. والترام المثير للإعجاب .. أحداث يومية
 كلها تتشكل فى الهواء الأسود كأنه شاشة وهمية تسقط
 عليها أشعة وعي ..
 و..... صرير الباب ...

قل يرمى داخل الحجرة .. ثم (سيلويت) ابنته
 يملأ فتحة الباب المضيئة .. ماذا أتى بها ها هنا ؟
 إنها حجرتها على كل حال ولربما نسيت شيئاً ما من
 كتب دراستها أو حليقاتها وجاءت لتأخذها فى هدوء
 بون أن تزعجنا .. ها هى ذى تسن فى بطء إلى جوار
 الفراش ..

صوت حفيف ثوبها الطويل .. وصوت قدميها
 الحافيتين .. وصرير الباركيه ...
 تأملت فى شرود شعرها الطويل المنسدل على كتفيها
 يتلألأ فى ضوء الصالة الخافت .. و...
 وهنا أدركت أن هذه ليست ابنة (عماد) !..
 ابنا - بالتاكيد - أطول قامة منها .. و(سارة) ابنة
 (عماد) لا تملك سوى بعض خصلات الشعر القصير
 على جانبي جمجمتها !..

توقف قلبى عن الخفقان ...

إن هذه الفتاة - أو هذا الشيء - يقترب بتوادة من
 الفراش .. من الناحية التى أمام عندها .. إنسى الآن
 أراها بوضوح ...
 كانت هى (شيراز) !..

ف .. ف .. فتحت فمى لأ .. لأصرخ لـ .. لكن
 الكلمات - بالطبع - اتحسرت فى حلقى .. ثم ...
 ساد الظلام برهة عرفت بعدها أنني فقدت الوعي
 لجزء من الثانية .. لكنى حين عدت لعالم الواقع كانت
 بعد ذلك واقفة جوار فراشى ترمقنى بعينين زرقاوين
 شفافتين ..

— (رفعت) !.. ما زلت تذكرنى .. ؟

« يجب أن تنقنسى ... ألا ترى أنني أتحوّل
لمسح !! » .

وفي بظه فتحت فاهما .. لسان مشقوق كلسان الأقاصي
ينزلق ما بين صفيين من الألباب البيضاء اللامعة ..
« يجب أن تفعل شيئاً .. أرجوك !! » .

سأصرخ .. هذه المرة سأصرخ ولن تحتبس الحروف
في حلقى .. أصرخ .. أصرخ ..

استيقظ (عماد) مفزوعاً فما إن رأى ما رأيت حتى
فهم على الفور ما هناك .. وكانت مشاركته — ذلك
الأبله — فعالة حقاً إذ احتضننى في هستيريا وشرع
بصرخ معى !!

صراخ .. صراخ .. صراخ ..
نور الغرفة يضاء .. وزوجة (عماد) وابنته تظفان
على الباب ترمقانا في جزع ودهشة ...
نظرنا حولنا فلم نر الفتاة ...
اختلفت .. تبخرت تماماً ...

طففتا بكلمات مبعثرة نشرح للزوجة ما حدث .. شبح
فتاة كنا نلعب معها في الطفولة برغم أنها كانت قد
توفيت .. الأمر الذى لم يقنعها كثيراً في الواقع ..



إن هذه الفتاة ، أو هذا الشيء ، يدرب بتودة من الفراش ..

— يا فرحتى! .. رجلان ناضجان مثلكما بصرخان
بعد منتصف الليل كالندابات .. وكل هذا لأنهما يخشيان
الظلام! ..

— ليس الأمر كما تتصورين يا (فايزة) .. لقد
رأيناها معا فى نفس الوقت ..

مصصت بشفتيها وتناعبت ثم أمسكت كف ايبتها
عائدة الى حجرة النوم .. ولم تنس أن نسالنا عما إذا
كنا نرغب فى ترك النور مضاء ..
بالطبع نرغب ..! ..

* * *

فى الصباح اتصلت بـ (منحت) لأخبره بما حدث
أمس فوجدته فى حال سيئة جداً .. فد (شيراز) — كما
قال — كانت هناك .. تنتظره جوار باب دورة المياه
وكانت تضحك بركة ..!

أما (إلهام) فاكثفت بأن أكثت — فى فتور — أن
(شيراز) ظلت تجوب صالة دارها طيلة الليل ..! ..
وأنها — حين أيقظت زوجها — لم تجذ للفتاة أشراً
وصارحها زوجها بأنها حقاً مخبولة ..

إن ما حدث لا يترك مجالاً للشكوك ..
إن اللعينة — (شيراز) لا (إلهام) — تحوم حولنا
ونظردنا ..

كانها أتركت أتنا التقينا بعد كل هذه الأعوام ...
كانها تريد منا شيئاً ...
كانها تطلب منا أن تعود الى البيت ..
* * *

وعند (عماد) التقينا ... كانت (إلهام) قد جاءت
مع زوجها الذى بدأ غير مصدق لكل هذا السخف ..
لكنه حين عرف أننا جميعاً رأينا الفتاة أمس وفى
نفس الظروف تقريبا بدأ بهتم .. وعنى وجهه الأثيب
الوقور لزحمت تجاعيد القلق .. لا توجد هلوسة
جماعية على الأقل بالنسبة لأشخاص متباعدين ..
وهكذا دار الحوار بيننا ..

كان السؤال الأول الذى سألته (عبير) هو : لماذا
عادت (شيراز) ؟ ..

الإجابة سهلة : عادت لأنها تريد شيئاً ما ...!

السؤال الثانى : ما هو هذا الشيء ؟ ..

الإجابة : لا ندرى .. ليبتها تحدثت صراحة ... لكنى
أضفت هنا أنها طالبتنى بإتقادها قبل أن تتحول الى
سخف .. وهذه نقطة هامة ..

السؤال الثالث : ما سر التبدل البشع فى مظهرها ؟ ..

الإجابة : لأنها — كما قلنا — فى سبيلها للتحويل الى
سخف ..

السؤال الرابع : لماذا نهتم بكل هذا ؟ ..

الإجابة : لأنها تطاردنا .. ومن الواضح أنها لن تتوقف عن ذلك .. ولا أحد منا قادر على ممارسة حياة طبيعية منتجة في وجود شبح في داره .. فضلاً عن أننا جميعاً سنصاب بالخبال خلال أيام إذا استمر الحال على هذا المنوال ...

السؤال الخامس : وماذا سنفعل ؟ ..

الإجابة : لا شيء .. إن (شيراز) هي التي ستتخذ الخطوة الأولى ..

فقط علينا أن نبقى متلاصقين وعلى اتصال ...

لا نعتقد أن (شيراز) ستؤذينا .. فقط سنكتفى بتعبير صفو حياتنا وإصابتنا بجلطات في المخ والشرابيين التاجية ...

لكنها أحببتنا .. نحن متأكدون من ذلك ...

قالت (إلهام) في غيظ آثار دهشتي :

« كنتم جميعاً تحبونها .. خاصة السيد

(رفعت) .. »

هزرت رأسي في ارتباك ودمدمت :

« لم أكن قد رأيت عيوناً زرقاء في حياتي .. هذا

كل شيء ! »

« عذر أفتيح من ذنب ... »

* * *

أطفال تغمرنا النشوة ...

نتبادل ألفاظاً سكرى ..

لنقد براءة ضحكاتها ..

أجتز عبير سذاجتها ..

وتكافح كي تبدو أنثى ..

وأجاهد كي أبدو رجلاً ... ! من قصيدة قديمة

لـ د. (رفعت) .

سألت (عماد) وأنا أنتزع آخر سيجارة في العبوة :

« لم نعرف بعد من يقطن البيت الآن ؟

ولا مالكة .. »

هز (عماد) رأسه .. وداعب شعر ابنه التي تلهو

على البساط ببعض المكعبات الخشبية .. وقال :

« بعد وفاة الأسرة ألت ملكية البيت لأحد الورثة

المقيمين في الخارج .. ولم يره أحد — ولا أبناؤه —

طلبة هذه السنين ... إن سمعة البيت سيئة وإن يدهشني

ألا يكون قد وجد مشترياً ... »

« ولكن .. لا بد أن هناك شخصاً ما يعنى بالبيت ..

محامياً أو خفيراً أو أحد الأقارب .. ما الذي يمنع أي

معد من أن يقتحم البيت ويستولي عليه ؟ »

« على الأقل أن يكون من أبناء (المنصورة) ..
فكلهم يعرفون هذا البيت ويخشونه كالموت ذاته .. »
ساد الصمت برهة .. ثم إبنى نظرت إلى (منحت)
وسألت :

« هل عرفتم تفاصيل أكثر عن الحادث الذى أودى
بالأسرة ؟ »

قال (منحت) وهو يضع سلفاً على ساق :
« إن القصة قديمة جداً وقد بخلت فى قاموس
الأساطير منذ زمن .. لكن لا أحد يعرف سوى أن
الأسرة فقدت عائلها .. ثم وجدوا جميعاً موتى ...
ويقال إن اللعنة حلت بالدار من لحظتها ... »
« إنها القصة القديمة إذن »

ثم إبنى أقيت برأسى للوراء وتنهت ..
« من الصعب على أن أصدق كل هذا .. أنا بالذات
محارب الخرافات القديم .. أقابل شبحاً بل وأطالب
بإرضائه .. »

كانت ذكرى (شيراز) قد تبخرت تماماً ولم تعد
تزور وعيى ، وحتى حين كانت تزوره فى ليالى الشتاء
الباردة كنت أقول لنفسى إن هناك (تفسيراً مادياً ما)
لكل هذا ...

منذ أعوام لم يكن كيريبانى وصمود منطقى العلمى
قابلين للتزعزع وحين اصطدمت بالمذعوب والنداهة
وأكل البشر و (الرومى) و (ميدوسا) وجدت دائماً
ذلك التفسير العادى ..

لكن وحش (لوخ نس) و (الصاس) و (الفرعون
الغاضب) أحدثوا شروخاً فى جدار هذا المنطق الصلب ..
واليوم ها هى ذى (شيراز) تعود لتؤكد لى أن كل
شء ممكن ، وأن ضيق الألق ليس هو من يؤمن بعالم
ما وراء الطبيعة .. بل هو من لا يؤمن به ..

عجيب هذا الكون !.. غموض فأس اليم .. والمصيبة
أنتى ساموت يوماً دون أن تفهم .. ودون أن أنعم ..
وستظل علامات الاستفهام خالدة تزرق منام شلب آخر
يحسب نفسه ذكياً .. وستورق منام أحفاده وأحفلا
أحفاده إلى يوم الحساب !..

وفجأة .. وفى الضوء الخافت المخيم على غرفة
الجلوس لمحت وجوه الجالسين حولى تشحب ...
نظرت لأرى ما أثار رعبهم فوجدت ...
كانت (شيراز) واقفة عند مدخل الحجره ووجهها
خارج دائرة الضوء !..

وسمعت ابنة (عماد) تترار وقد وفقت في هلع نائفة
مكعباتها الخشبية من حولها .

— « (بابا) .. إنها نفس الفتاة !.. لقد عانت ! » .
تصلبت أجسادنا جميعا وشلت أفكارنا .. بعد لم
نستطع لتتبع فكرة أننا نرى شيئا وأن هذا الشبح
يقف الآن معنا في غرفة واحدة ..

كانت تتحرك ببطء .. ووجهها يدخل دائرة الضوء ..
الآن نراه .. لن أصفه لك تاركا الأمر لخيالك لكنني فقط
أزعم أنه أشع وجه رأيت في حياتي ..
كانت الفتاة صابغة في ما قالته ...

إنها تتحول فعلا إلى مسخ .. وبسرعة لا تصدق ..
ومن أعماق أعماق الهاوية حيث أرواح المعذبين
جاءنا صوتها المتحضرج الباكى :

— « أنتم لم تنجدوني حين أتيت لكم طالبة العون .. » .
ونظرت بعينيها الحمراءوين لي وهستت :
— « الويل لكم ! .. الويل لكم ! » .

* * *

٧ - فلندخل البيت ..

المتنقى الأمر بعض الوقت حتى تفيق (عبير) من إغمائها ، وتكف (سارة) عن الصراخ الهستيري ، ويستعيد (عماد) ترابط كلماته ، ويستعيد قلبى انتظام خفقاته ...

وحين علت المياه الى مجاريها كانت (عبير) أول من تكلم .. فصاحت فى هستيريا :

- « ماذا تريد هذه الملعونة منا ؟ .. كيف ننفذها ؟ » .
قالت (إلهام) وهى تبلل وجه (عبير) بمنديل مبتل :
- « من الواضح أن المشكلة تبدأ وتنتهى فى البيت .. » .

قال (مدحت) فى ضيق صدر :

- « إنن ندخله ! » .

هب (عماد) مذعورا .. فالفكرة لم تكن واردة لديه أصلا . ثم رأى أن الحكمة تقضى بالألا يبدو مذعورا إلى هذا الحد .. فقال مبتلغا ريقه :

« لقد قسمنا أمام أبي - رحمه الله - على أن نبتعد
عن البيت .. »

راقت لي الفكرة وبدأ لي أنها ستضيق علي جبننا
مسحة لا بأس بها من الشرف .. لكن (عبير) - عليها
اللعنة - قالت بمجرد أن أفأفت تماما :

« كان القسم يتضمن أننا لن ندخل البيت ما دام
أبي حيا .. أما وقد توفاه الله فقد تحررنا من قسمنا ..
يمكننا دخول الدار ! »

حقا ؟؟ يالك من عقرية !.. كنت أخشى أن نحرم
من هذه الغامرة الشيقة .. ألا يارك الله فيك ! ..
بئل (منحت) شفثيه الجافثين بلسانه .. وهمس :

« إن .. متى ندخله ١٢ » ..

* * *

ياله من سوال !..

بالطبع في ضوء النهار يا (منحت) .. وبالطبع بعد
أن أتسلح بمسدسي .. لا داعي لأن نحضر أحد خيراء
الأرواح لأن المشكلة مشكلتنا ولن يساعدنا كثيرا .. ثم
إن التصايين فيهم أكثر بمرأحل من الصالقين ، ولا نود
أن ندخل في مشكلة الهدهد اليتيم والنعلة المعصاية
بالبواسير ..

كذلك لا أرى داعيا لأن يصحبنا زوج (عبير) وزوج
(إلهام) لأن البيت لا يعرفهما ولا يحمل لهما ذكرى ..
ولربما أدى هذا الي نتائج غير متوقعة ..

ستدخل البيت في نفس التشكيل القديم وستكون كل
من المرأتين خير رفيق للأخرى .. وسيكون التوءمان
خير رفيقين لأختهما ...

هل تحمل شيئا آخر ؟؟

في الواقع لا أدرى باحتمالات ما قد تراه في الداخل ..
لكني لا أرى مانعا من أن نحمل بطاريتين وحبلا ..
لماذا الحبيل ؟؟ لأنهم يحملون حبلا دائما في القصص
يا سيدى !..

(عماد) يحمل سكين الجيش السويسري من طراز
(فكتوريا نوكس) وهي تعطى فرصة استعمال مفك
ومطواة وفتاحة زجاجات .. إلخ ..

مع مصحف صغير الحجم .. و .. ماء وطعام ؟؟
لا أدرى يا (إلهام) فلا أظن المسألة تحتمل كل هذا
التعقيد .. لكن .. لم لا ؟؟ حملتي حقيبة صغيرة بها
بعض المعليات والخبز وزمزميات ماء .. كلا ..
لا داعي لعمل شطرنج كفتة أو لحم بارد .. فلنسا ذاهبين
إلى حديقة الحيوانات بالطبع ...

هل أنتم مستعدون؟ ..

هل كل شيء على ما يرام؟ ..

إن هلموا ندخل البيت ...!

* * *

مرة أخرى رائحة الفجر المشيعة بالمازوت الذى لا تعرف مصدره ..

الضباب يحيط بالبيت الجاثم كوحش أسطوري على حافة النيل ..

صوت العشب يتهشم تحت أقدامنا والبيت يكبر .. يكبر ..

ومرة أخرى تنسل كقطط كبيرة متحفزة نحو عصفور غافل ..

لماذا اخترنا الفجر؟ .. سؤال غريب .. بالطبع لأنه

يبعدنا عن عيون الفضوليين الذين سيدهشهم أن يروا

ثلاثة رجال وامرأتين يدخلون بيتنا مهجوراً .. ولأن

الفجر هو الوقت الذى قابلنا فيه (شيراز) أول مرة .. ولأن الفجر هو الوقت الوحيد الذى يجمع ما بين أسرار الليل ووضوح النهار .. سترى نفس أشباح الظلام

ولكن فى ضوء الصباح ...

« نسيتم أن أحضر ثوماً ! »

قلتها وأنا ألثث .. فسألنى (عماد) فى حيرة :

« ثوم ؟ .. من أجل الطهى ؟ » .

« بل لقتل مصاصى الدماء إن وجدوا ! .. تعلم أن

لى خيرة فى هذه الأمور ! .. »

قلتها فى سخرية متوقفاً أن يموتوا ذعرًا .. لكن (عيبر) مدت يدها الى حقيبتها وأخرجت سكينًا لها

لون قضى براق .. وسألتنى ببراعة :

« هل هذه تناسبك ؟ .. قرأت أن مصاصى الدماء

يخشون الفضة كثيرًا ! » .

« يالك من عمقيرة ! .. » .

الواقع أننى نجحت فى إرعاب نفسى حتى الموت ، ولولا بقية من حياء لوثيت الأبدار ...

هاهى ذى بوابة البيت الصدنة والنباتات الشيطانية تلثف حولها ..

« لكنها مفتوحة ! » .

كذا صرخ أحدها - ربما أنا - وهو يتصلب أمام البوابة العجوز ..

قال (منحت) وهو يرمقنا بنظرة ذات معنى :

« هذا طبيعى .. إن البيت ينكرنا بعد كل هذه

الأعوام .. وينتظرنا ! » .

انصب شعر رأسي - أو ما تبقى منه - وتلاحقت
أنفاسي .. وفي داخلي تردد صراخ ملاكي الحارس :
لا تدخل !.. بريك لا تدخل !.. ركض بعيداً وكان
الشیطان يطارك ...

لكن هذه حقيقة واقعة ..

إتهم يجتازون البوابة الواحد تلو الآخر .. هم
خائفون لكنهم لم يتراجعوا .. والآن جاء دوري .. بخيل
لي أن كل قصص الشجاعة في التاريخ جاءت من أناس
خشوا أن يبدوا جبناء ...

والآن هاذا اجتاز البوابة .. ربما لأول مرة منذ
عشرين عاماً .. و ..

كررررررريك !..

هذا الصوت ...

نعم يارفاق !.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه في
استماع سادي مرعب ..

لقد انغلت البوابة خلفنا وبمجرد أن عبرتها أنا !..

* * *

« لا توجد مشكلة .. تستطيع تسلق السور في أية

لحظة .. »

قالها (مدحت) وهو يتأمل البوابة المغلقة ويحاول



نعم يارفاق !.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه في استماع سادي

مرعب ..

فتحتها .. لكنها كانت مغلقة بكالون (لاتش) داخلي
يحتم على من يريد فتحها أن يجد المفتاح ..
— (رفعت) الأحمق جذبها خلفه أو اشتبكت
بثيابه .. —

صحت وقد تصاعد الدم الى رأسى :

— « وهل تجد هذا تصرفاً متوقفاً منى ١٢ ؟ »

— « إذن هو الهواء .. »

رفعا رعو منا لأعلى .. ثم تبادلنا النظرات ..

إن الإجابة متوقعة وهى أنه لا توجد نسمة هواء

واحدة ..

إن من أغلق البوابة هو بنفسه من ينتظرنا هنا ..

قلت وأنا أشعل سيجارة :

— « ما رأيكم ؟ .. يمكننا الانتظار حتى يأتى أحد

المارة فنستغيث به لإخراجنا .. أو نحاول تسليق السور

الحديدى ، .. لا نريد التورط أكثر داخل البيت بينما

سفننا محترقة .. »

ابتسم (مدحت) للتشبيه .. وقال :

— « لولا السفن المحترقة ما انتصر (طارق بن

زباد) .. لا مفر الآن من التمدى إلى آخر الشوط .. »

قالت (إلهام) مؤمنة على كلماته :

— « إن الاستغاثة بأحد المارة ستوقنا فى مشكلة هى
لماذا افتحننا هذا البيت ؟

هذا — بالطبع — مالم نظننا أشباحاً ويموت بالسكنة

القلبية .. أما عن تسليق السور .. فأتانا بدينة جدأ و (عبير)

حامل فى الشهور الأولى وأنت ياد . (رفعت) مصاب

بالربو وضيق الشرايين التاجية — كما قلت لنا — فكيف

بريت تسليق هذا السور ؟ .. »

قال (مدحت) وهو يشير لسافه :

— « وأنا مصاب بكسر قديم لم يلتئم بشكل مرض .. »

* * *

نظرت بعينها الحمراءين لى .. وهمست :

— « الويا، لكم !! الويل لكم ا .. »

* * *

عبر الأشجار العتيقة الملتفة حول نفسها ألما :

مضينا نشق الطريق نحو البيت ..

الحذر يحرق أطراف أعصابتنا فلو أن عصفورا غرد

لوثينا جميعا مترين فى الهواء .. لكن العصفير — كما

قلت لك — لم تكن تدخل هذه الحديقة ..

ها هو ذا منخل الدار .. وجواره مطرقة على شكل

قبضة اليد ..

لا أثر لكائن حي.. لكن الباب مفتوح !..

كنا نندفع داخلين لولا أن هتف (مدحت) محذراً :

« لحظة .. ليس هذه المرة ! » .

ثم إنه أخرج قطعة حبل من جعبته وربط طرفها بمقبض الباب .. ثم شد الحبل ليربط الطرف الأخر في جذع شجرة قريب ..

« بالطبع ينتظر هذا الباب دخولنا ليتعلق مثل الباب

الخارجي .. لكننا لن نسمح بذلك ! » .

ثم نظر (مدحت) لى و (عماد) متسائلاً :

« اعتقد أنه من الحكمة أن ينتظر أحدكما خارج

الدار .. من الغباء أن ندخل جميعاً غير عالمين

ما ينتظرنا بالداخل .. » .

« ليس أنا .. » .

قلتها على القور وقد رأيت بعين الخيال صورتي ولقفا على مدخل الدار أتخن سيجارنى العاشرة يعصرنى الفتق والرعب .. غير مسموح لى بالدخول ولا مسموح لى بالفرار ..

وهنا صاحت (إلهام) أنها ترخب بالقيام بهذه المهمة التى تبدو سهلة ..

« لا تنسى إذا أنت رأيت ما يريب أن تصرخى .. » .

« حتماً .. » .

وفى صمت أضأت بطريرتنا ودلفنا من الباب .. الظلام ورائحة الرطوبة والعطن .. والغبار يغلف كل شيء .. هل تغيرت الموجودات عما كانته ؟ .. لا أنكر .. لا أحد ينكر .. لا نذكر حتى الإضاءة التى كنا نرى الأشياء فيها .. هل كانت كهربائية أم إضاءة شموع ؟ غريب أننا لم نلاحظ ذلك ..

سمعت (مدحت) بهمس فى أذنى :

« حمل مسدسك فى يدك تحسباً للمفاجآت .. » .

تحسست جيبي فى حيرة .. ثم همست فى أذنه :

« لقد اختلفى !.. تبخر !.. لا أدرى كيف .. لكن

لا تدع أحداً يشعر بذلك فى الوقت الحالى ! » .

.....
* * *

كنا موقنين أننا سنراها ..

لكننا لم نملك لنسى فكرة عما سنشعر به لو حدث ذلك ..
 فى أعمالنا نعلمنا أن تكون قد رحلت .. لم يكن أحدنا
 راغباً فى رؤية ذلك الوجه الشاه مرة أخرى خاصة
 على ضوء البطارية الخافت باعث الظلال ..

ها هى ذى (عبير) بقامتها الناحلة تنزع عن
 وجهها خيوط العنكبوت الكثيفة .. و (عماد) يرتجف
 كالعادة .. وأنا أنظاها بالثبات .. أما (منحت) فهو
 أكثرنا جرأة وانحناء ، لهذا تحول إلى قائد مرتجل
 لجماعتنا الصغيرة ..

المائدة الطويلة حولها مقاعدها الكابوسية ..
 والمزهية العملاقة والشمدان ..

المسائل المنسدلة .. تمائيل المستحبات البرونزية
 تتلوى فى أوضاع ، حاول المثال أن يجعلها مغرية ..
 المرايا العديدة التى فقدت طبقة طلاؤها ..

همست فى أنن (منحت) :

- « هل تذكر قصة (شارلز ديكنز) الشهيرة
 (توقعات عظيمة) ؟ .. الأتمة العجوز التى ظلت قاعة
 المائدة فى دارها خمسين عاماً بحالتها حتى تورتة
 العرس والمشروبات .. لقد نيس اسمها ..

- « لا أقرأ هذا الهراء الذى تقرؤه .. وليس الوقت
 مناسباً لاستعراض ثقافتك .. »

- « لا حيلة لى فى هذا .. إن كل موقف فى حياتى
 يذكرنى بموقف مماثل فى عمل أبى .. و..... »

إن (عبير) متصلة كالمثال .. فماذا حدث ؟ ..

فتوت منها .. ونظرت لعيبيها متسائلاً عما هناك ..

همست وهى ترمى مقعداً إلى جوار (كونسول)
 صغير مذهب :

- « (رفعت) .. »

- « ماذا ؟ »

- « إنه حى ! »

* * *

كفك سخفاً يا (عبير) .. بالله عليك كلى عن
 استيريا النساء لحظة واحدة .. لقد رأيت المقعد يتحرك ..
 فننقل إليك اصطدمت به .. فننقل إليها رقصة الظلال ..
 فننقل إليك حمقاء .. فننقل أى شيء ..

لكن لا تزعم لحظة أنه يتحرك حركة ذاتية ..!

صاح (مدحت) في ضجر :

« يا إخوان .. لقد دخلنا هذه الدار لنواجه أشباحا
فليس غريبا أن ترى كرسيًا يتحرك ...!!.. إن من يذهب
لصيد النمر لن يضايقه كثيرا أن يرى آثار مخالفه على
الأرض ... »
وهكذا ...

شرعت - وأولاد خالي - نفتش الطابق السفلى على
ضوء البطاريتين فلم نجد شيئا غير عادي ...
مجرد بيت لم تدخله قدم منذ عقود ...
وهنا صاح (عملا) وهو يشير للأرض مسلطا ضوء
البطارية :

« انظروا ! »

فنظرنا ...

إلى الأرض المكسوة بطبقة كثيفة من غبار الأعوام
نظرنا ... كانت هناك آثار لأقدام .. أقدام صغيرة عارية
كانها لطفلة مشت حديثا في هذه القاعة ..
(شيراز) كانت حافية في أغلب الأوقات التي
عرفتها فيها . ومن الغريب أن هذا لم يبد شأنا لنا قط ..
لو كانت هذه آثارها فإن لها وجودا ماديا ..

ولكن .. هذا حتمى .. لقد كانت تلعب معنا وتلمسها
وتجرحها .. فهي لم تكن طيفا بل كتلة إكتوبلازمية
متجمدة ..

إن (شيراز) هنا ..

وبالتحديد من فترة قصيرة جدا ..

استنتاج لا بأس به .. أما الاستنتاج الأهم فهو أنها
- آثار قدميها - تتجه في ثقة إلى الطابق العلوى ..

همس (مدحت) وقد غلبته الرهبة :

« إن سنجدها هناك .. ! »

« بل هي تريد منا أن نذهب هناك ! »

* * *

« سأموت إذا ما طلبت منى ذلك .. »

« إن مت !! »

* * *

قال (مدحت) وهو يتحاشى النظر لنا .

« من الحمق أن تصعد جميعا .. بل الأفضل أن
ينتظر اثنان منا هاهنا حتى يتجدا الآخرين في حالة
الخطر .. ومن يدري ؟ .. ربما كان الاثنان اللذان
سيصعدان هما منقذا الآخرين اللذين سيبقيان هنا ! »
لهذا السبب - ولأننى أكره دور المنتظر القلق - قررت

الباب الثالث .. غرفة نوم غارقة فى الغبار وريح
القدم .. والطاويط .. و ..
ماذا ؟ .. وطاويط !؟ ..

بالطبع ! .. لقد نيسنا امرها ونسينا أن هذا البيت هو
بيت الأحلام بالنسبة لها .. وما هى ذى تلك التذيبات
المجنحة الشيعة تنطلق مرفرفة بأجنحتها السوداء فى
أرجاء الغرفة وقد ألقى سباتها صوت حركتنا ..
أغلق (مدحت) الباب على الفور قبل أن تخرج هذه
الكوابيس الحبة لنا ..

* * *

كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلى من وقت لآخر ..

* * *

ولمنا دوى الصوت ..

فى البدء ظننا أن المنزل بنهار فوقنا ثم أدركنا - بعد
ثوان - أن هذا صوت باب ينغلق بشدة فى الطابق
السفلى ..

تبادلت و (مدحت) نظرة عدم فهم .. ثم فجأة أدركنا
ما حدث ..

باب المنزل ! .. هذا بالتأكيد هو صوته ! .. لقد انغلق
علينا لتصير سجناء فى هذه الدار الرهيبة ..

أن نكون من الصاعدين للطابق الأعلى .. وكانت
المشكلة هى الحاجة الماسة لشخص جرىء مثل
(مدحت) فى المكاتين معا .. ثم استقر الرأى على أن
يصعد معى ..

على ضوء البطارية نرى درجات السلم الخشبية
العتيقة مغطاة بأطنان من الغبار وأثار القدمين
الصغيرتين ..

نشم رائحة الأعوام .. ونسمع تهشم الخشب للرطب ..
وتشعر بالفترب كارثة من نوع ما ..

* * *

أصدقاء (شيراز) ؟ .. مرحباً بكم .. إن أصدقاء
أينتى هم أبنائى ..

* * *

إنه الطابق العلوى حيث غرف النوم ..

سنقوم بدور ثقيل على النفس هو فتح هذه الأبواب
الموصدة باباً باباً بالحثين عن شيء لا ندرى كنهه ..
الباب الأول .. فرش عتيق وستائر مغلقة بالعنكبوت
و... جو الغرفة يوحي بأنها غرفة نوم امرأة .. ربما
الأم بالذات ..

الباب الثانى .. لا يفتتح .. موصد بالمفتاح من
الداخل أو الخارج لا أدرى ..

همست بصوت كالفحيح :

« لكن كيف ؟ .. إنك قد ربطته بعناية .. »

ابتلع (منحت) ريقه .. وهمس :

« المشكلة هنا أن هناك شيئاً قد حدث لـ (إلهام)

بالتأكيد ! .. ما كانت لتترك الباب ينغلق وهي جوارده .. »

قلت وقد أدركت خطورة الموقف :

« (و عبير) و (عماد) .. لو أنهما بخير لما

انغلق الباب ! .. »

إن هذا هو ما حدث ..

إن حاجتنا لتأمين خط رجعتنا قد جعلتنا نتجزأ إلى

مجموعات صغيرة .. (إلهام) على الباب .. (عبير)

و (عماد) بالطابق السفلى .. أنا و (منحت) بالطابق

العُلوى .. وهكذا تركنا جيوباً معزولة في عدة أماكن ..

تري ماذا أصاب الآخرين ؟ ..

هرعنا جرياً إلى الطابق السفلى فوق الدرجات

العتيقة .. كان ضوء النهار قد بدأ يتسرب من شقوق

النوافذ عبر تمزقات الستائر .. وقد غدا بإمكاننا أن

نتبين ما يدور حولنا دون جهد كبير ودون استعمال

ضوء الكشاف ..

لم يكن هناك أثر للباسبان ..

و حين جرينا إلى باب الشقة نتحسس مقبضه ؛ أدركنا

أنه مغلق بإحكام .. ومن المستحيل فتحه ..

إن نحن معزولان في هذا البيت ..

لا مخرج لنا .. ولا رفيق ..

ولكن أين ذهب الجميع ؟

* * *

« (شيراز) .. أنا خائف .. »

« خائف وأنا معك ؟ .. »

* * *

« لكننا لم ننته بعد .. لن ينجح البيت في حصارنا ..

نستطيع دائماً تهشيم النوافذ الخشبية المضغضة والفرار

قفزاً من فوق سور الحديقة .. »

قالتها (منحت) في توتر محاولاً أن يتعاضد ..

قلت في لهفة :

« إن .. لنفعل ذلك الآن .. »

كان المزلاج الخاص بمصراع النافذة صدناً متجمداً

في مكانه ، لهذا تشبثت بقوائم الخشب وشرعت أهزها

في جنون محاولاً تهشيمها ..

كان ذلك حين دوت الصرخة ..

عميقة كانت .. مكتومة كانت .. قادمة من أبار

الجحيم حيث تحترق أرواح الخطاة وأجسادهم ..
وشعرت بالشعر على ساعدي ينصب ...
ثم تبادلت نظرة مع (مدحت) حين عرفنا مصدر
الصرخة .. وفي نفس اللحظة همسنا بصوت كالفحيح :
- « عمار ! »

شرعنا نثب درجات السلم إلى أعلى ثلاث درجات في
كل وثبة غير عابئين بخطر تهشم الخشب العطن تحت
كعبينا ... كان الصراخ مستمراً آتياً من إحدى غرف
النوم القديمة التي لم نخلها بعد .. وبركة واحدة فتح
(مدحت) الباب لنرى على ضوء البطارية آخر مشهد
توقعناه ..

كان هناك حبل يتدلى من سقف الغرفة .. وكان هناك
شيء ما معلق بالحبل يتلوى كالأفعى .. وكان هناك
فراش عتيق الطراز .. أما على الأرض فكانت هناك
أشياء مديبة بارزة لأعلى ..

استغرقنا ثلاث ثوان لنفهم .. وثلاث ثوان أخرى
لنصرخ هلعاً ..

وفي هذه اللحظة لمحناها ... (شيراز) ! ..
كانت متربعة كالقطة فوق الدولاب الأثري الموجود
بطرف الحجرة .. وكانت قدمها العاريان الدقيقتان

متدليتين على حافة الدولاب وهي تحركهما في استمتاع
.. والظلال تكسو وجوها لكننا كنا نعرف أنها هي ..
وسمعا ضحكها الرقيقة العذبة تغرد :

- « لقد تأخرتم كثيراً في المجيء يا أحبائي ! »
ثم إنها استرخت في جلستها .. وأردفت :

- « هاهي ذي لعبة مسلية أخرى .. إن (عماد)
معلق كما ترون إلى السقف بحبل متآكل في الواقع ..
حبل ضعيف جداً أكاد أسمع صوت تمزق أليافه .. صه !!
هل تسمعون ؟ .. كرى كرى توك .. هي هي .. وحين
ينقطع الحبل سيهوى .. فوق ماذا ؟ .. فوق هذه النصال
المديبة المشربجة لأعلى التي ستحيل جسده البدين إلى
مصفاة !! »

وأخذت تضحك على حين رأينا على ضوء البطارية
أنها لم تكذب في حرف واحد ..

- « كرى كرى توك !! هاهاها !! اللعبة هنا هي :
هل يمكنكم إيجاد طريقة لإزالة قبل كرى كرى توك ؟ ..
إننا لم نلثه سوى منذ أعوام .. ويبدو أننا سنمرح كما
كان في الماضي أو أكثر .. هي هي !! »

الشيطنانة !! كان (عماد) يتلوى في جنون متوسلاً
لنا أن نفعل شيئاً .. ثمة خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه



كان (عماد) يتلوى في جوة متوسلاً لنا أن نفعل شيئاً .. ثم
خطاف مشبك إلى الحبل وطرفه الآخر مشبك في سوكه ..

الأخر مشبك في سوترته .. لا لرى هل تتمزق سوترته
أولاً أم الحبل .. كل ما أدريه هو أن أمامه ثلاث دقائق
أو أقل قبل أن ...

صحت في هلع :

« كف عن التلوى كالأفعى أيها الغبي !.. إنك تزيد

عمر الحبل قصراً ! » .

وأمسكت بيد (مدحت) في جنون متوسلاً له أن
يفعل شيئاً .. توقف تفكيري تماماً ولم يعد لدى سوى

الأمل في أن يكون تفكير (مدحت) يقطاً ..

« (مدحت) !.. فلنحاول التقاطه حين يسقط .. أنا

وأنت .. » .

دوى صوت (شيراز) المرح البارد القاسي يذكرنا :

« دقيقتان .. ! » .

همس (مدحت) في نوتر :

« كلا .. إنه ثقيل الوزن وسيكون أثقل عند

سقوطه .. ثم إنه لا يوجد بين النصال مكان يسمح لنا

بوضع أقدامنا - سينتهي الأمر بتمزيقنا جميعاً .. » .

« إن نحاول تسلق الجدار وإنزاله .. » .

« كلا .. كلا .. الجدار أملس .. وحتى إذا ... » .

ولم يكمل عبارته لشرود ذهنه لكنى فهمت .. حتى
إذا تسلقتا الجدار فكيف تجذبه إلينا .. وكيف نرفعه ؟
لايد من فكرة أفضل .. كرى .. كرى !
- « دقيقة ... ! »

الثواني تمضي .. ولم نجد فكرة مناسبة .. كرى كرى !
- « ثلاثون ثانية .. ! »

* * *

٩ - ألعاب شيطانية ..

فجأة صرخ (مدحت) :

- « هلم يا (رفعت) ! .. احمل السرير معي ! »

- « ولكن ... »

- « أسرع ! .. ستضعه فوق الاتصال كشبكة يهبط

فوقها (عماد) عند سقوطه .. هلم معي .. ! »

وثبنا إلى السرير الثقيل وحملناه حتى كانت جذور

عنقينا تنفجر - لكن لا وقت لنمزاح الآن - ونقلناه

لاهئين إلى الموضع الذي سيسقط فوقه جسد (عماد)

بعد ثوان .. كرى .. كرى !

- « ربع دقيقة ! .. »

أطلق (مدحت) سبة .. ثم ألقى بالسرير في المكان

المناسب له .. تساءلت في نفسك :

- « ولكن هل يتحملة الفراش ؟ .. هل ستحمى العلة

جسده حقا ؟ »

ارتجف ونظر لي زانغ العينين .. لا وقت لديه لاستبعاد

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN

هذه الفكرة .. فلتنجح أو لتحل اللعنة على كل شيء ..
سيان عنده الآن ..!

صوت (شيراز) الرقيق يدوي :

« فكرة لا بأس بها .. لكن جسده الثقيل سيهوى
مهتما الفراش لتنفذ النصال عبره .. كنت أظنكم أنكمي
من ذلك .. والآن دعونا نرمدى صواب فكرتكم ..
هيه ! .. هو ذا الحبل يقطع .. هيه ! .. إنه يسقط ..
يسقط ! .. »

* * *

« لقد فعلت الطبيعة كل ما بوسعها كي تحتركم من أن
ما يجرى في هذا البيت مريب .. لكنكم لم تفهموا ... »

* * *

ما إن هوى الجسد من السقف حتى أغمضنا عيوننا
— تلقائياً — متوقعين كارثة ...

لكننا — حين فتحناها — لم نجد كارثة .. بالأحرى لم
نجد شيئاً على الإطلاق .. لا (عماد) ولا (شيراز)
ولا حبلاً يتدلى من السقف .. لا شيء ! .. فقط الفراش
في موضعه الذي نلقناه إليه ...

كنا نلثث وفي حالة أقرب للجنون .. لكننا فهمنا ..
هي حالة هلوسة بصرية وسمعية شنيعة أدخلنا فيها
هذا البيت اللعين ..

١٠٠

ولو كان شبح (شيراز) معنا في الحجر فلاهد أنه
دامع العينين من فرط الضحك على حماقتنا واندفاعنا
الهستيري من أجل سراب ..

تبادلت النظرات و (مدحت) ...

ثم بدأتنا نردد عبارات المسباب متوعدين الفتاة بالويل
والثبور لو سقطت بين أيدينا .. مستكؤن أول بشريين
ينجحان في قتل شبح ...

* * *

وهنا سمعنا الأكين ..

كان قادمًا من الطابق السفلى ..

كأنه أنين امرأة حزينة فقدت أملها في شيء .. ولم
يكن في مقدورتنا ألا نهرع نازلين الدرجات الخشبية
متسائلين عما هناك ..

وهناك — عند ركن المدفأة — رأينا على ضوء النهار
المتسرب من الخارج أشنع كابوس رأيناه في حياتنا ..
(عبير) الناحلة الرقيقة مقيدة للجدار .. وعسى
قدميها تلتف ثلاث أفاع شريرة المنظر لا توحى بالثقة ..
وكانت البانسة — (عبير) طبعًا — عاجزة عن التعلص
أو الحراك أو حتى الصراخ بصوت عالٍ حتى لا تثير
حفيظة الزواحف الملتفة حولها .

١٠١

« نعبة جديدة لعزبتي (عبير) ! » .

كذا دوى صوت (شيراز) الرقيق فالتفتنا إلى مصدره ..

كانت واقفة في أعلى السلم بثوبها الأبيض الطويل وهي تضم إحدى يديها إلى الأخرى في شغف ..

صاح (مدحت) في عصبية وهو يشب السلام قاصدا تهشيم رأسها :

« أيتها الحدأة ! .. لقد ضقت ذرعا ! » .

في رقة وضعت إصبعها على شفيتها محذرة :

« شش ! .. إن هذه الأفاعى عصبية المزاج

وشرسة جدا .. وسامة ! ، فلا تجازف بأن تدغ إحداها شقيقتك الرقيقة في ساقها .. لو كنت مكانك لبدأت التفكير في كيفية إبعاد الأفاعى دون إثارة حفيظتها ! .. » .

بدأ كلامها مغنعا لنا .. فعاد (مدحت) بهبط درجات السلم في حذر .. ووقف جوارى شاردا للنبأ ..

هذه المرة لا أرى حلا لهذه الورطة .. الا أتسى همست :

« بالتأكيد هي هلوسة كالمرّة السابقة .. ؟ » .

همس في عصبية وعيناه لا تغارقان المشهد :

« وماذا لو كان واقعا ؟ ! » .

« لا أدري .. في الحقيقة يبدو لي الأمر معقولا وعلومسا إلى حد لا شك فيه .. » .

« والعمل ؟ » .

كانت الأفاعى تلتف في كسل وتراخ حول ساقى اليانسة التي ماتت ذعرا أو كادت .. شنيع هو الخوف الذي لا تمك حتى حق التعبير عنه ..

وهنا خطرت لي فكرة ..

انترعت قطعة من قماش الستائر وأحرقتها بقداحتي ثم ألقيت بها مشتعلة على بعد متر من ساقى (عبير) ..

« ماذا فعلت ؟ » .

« الحرارة .. المفروض أنها تجذب الأفاعى .. والمفروض أن جسد (عبير) يارذ كالتلج من فعل الأورينالين .. أعتقد أن الأفاعى ستفضل الذهاب لتري ما هنالك .. » .

بالفعل .. بدأت الأفاعى تكف فيودها من حول ساقى الفتاة .. وتزحف بهبط وتؤدة تجاه المصدر الحراري الوحيد في المكان .. يجب أن نسرع بإنقاذها الآن ، و ..

فجأة ...

اختفى كل شيء .. اختفت (عبير) والأفاعى (و شيراز) .. لم يبق سوى قطعة من القماش المحترق

منقاة جوار المنفاة ..

إنها خدعة بصرية قاسية أخرى ..

إن البيت لم يزل طفلاً يصبو إلى اللهو .. اللهو
المؤذى المزعج الذى ينسف أعصابنا نفساً ..

* * *

فجأة جنب (مدحت) تراعى ..

مغا سمعا صوت باب يفتح فى بطء ..

أجفلنا وتهاياتنا لأسوأ النتائج .. إلا أن الباب انكشف
عن وجهى (عبير) و (عماد) الشاحبين .. خيل لنا
أننا لم نر قط وجهين أجمل من هذين ..

— « (مدحت) .. (رفعت) ! .. أنتما بخير ! » ..

وارتمت (عبير) فى حضن أخيها على حين عاتقتى
(عماد) كالمهلوف وصرخ فى هستيريا :

— « سمعنا صراخكما فهرعنا ننتقمكما .. فوجدنا .. » ..

قلت وأنا أشعل سيجارة :

— « نعم .. نعم .. وجدتماتا على شفا الموت .. » ..

— « كيف عرفت ؟ .. كنت أنت مساقطاً على الأرض

بين ذناب شرسة تنهش جنتك ! .. » ..

غريب هذا ! .. تذكرت على الفور الكابوس الذى كان

يزور هويدا ليلًا وظننته من تأثير عشائها الدسم ! ..

إن فنتك الحمقاء تمكك — برغم كل شيء — بعض

الشفافية ..

— « وكيف تصرفتما ... ؟ » ..

— « أشعنا مفرش المائدة لنفرعها إلا أن كل شيء

تلاشى فجأة .. » ..

— « هذا ما حدث لنا بالضبط .. وماذا عن (مدحت) ؟ » ..

صاحت (عبير) فى لهفة وبصوت كالعواء :

— « كان مسخ رهيب يطارده .. واستطاع الظفر به

ثم ... » ..

— « .. تلاشى كل شيء .. » ..

هتف (مدحت) فى غل :

— « إن البيت اللعين يتسلى باللعب بأعصابنا ..

وأقترح أن نغادره فوراً قبل أن نجن ... » ..

— « لقد جعلتنا (شيراز) يرى بعضنا البعض فى

ورطات شنيعة .. كانت تتسلى بمشاهدة ردود أفعالنا ،

إنها لم تفلح بعد روح الطفولة وإن شابتها نزعة سادية

مذهلة .. » ..

تقدم (مدحت) الى النافذة الموصدة وعاد يواصل

ما كان بدأه من محاولة انتزاع المصراع .. وشرعت

أزيد متاعيه متظاهراً بالمعونة ..

حين دوت الصرخة ..

لقد صار هذا مِعْلاً .. سأشعر بالقلق لو مرت عشر

دقائق في هذا البيت دونما صوت ما .. صراخ أو اثنين
أو باب يتغلق أو حبل يتمزق ..

كانت قادمة من الطابق العلوي ..

بالتحديد عند نهاية (درابزين) السلم ..

كانت (إلهام) هناك تصرخ وتولول كقط داست قدمه
سيارة .. وكان شيء ما يتقدم نحوها .. شيء ضخم لم
نستطع رؤية وجهه لكننا لم نرغب في ذلك قط .. فقد
كان يمد يدين ضخمتين نحوها .. ويرتجف ..

ومن ذعرها كانت تتراجع للخلف .. للخلف ..

وفي الخلف كان (الدرايزين) المهشم منخفض
الارتفاع ينتظر ..

وهنا سمعنا صوت (شيراز) المخملي :

« والأآن لعبة جديدة من ابتكاري .. إن المسخ
يتقدم نحو (إلهام) وعليها أن تختار ما بين أتيايه أو
السقوط من أعنى .. »

كانت واقفة هناك جوار المسخ بثوبها الابيض تبتسم
وقد بدت كأنها مذيعة تقدم فقرة رياضية في برنامج
منوعات مثل ..

« لاحظوا أنكم لن تستطيعوا الصعود إليها لأن
درجات السلم نهشت .. »

وأشارت لما عنته .. كانت الدرجات التي صنعنا
وهبطنا عليها مرارا قد تلاشت تاركة مكانها فجوات
سوداء رهيبة ..

« أما عن محاولة التقاطها عند سقوطها فمشكوك
فيها .. إنها بديئة جداً وستغلت بالتأكد من بين أصابعكم
مالم تسقط فوقكم محيطة أجسادكم الي سجادة ! .. والآن
دعوني أر ما ستفعلون .. إن (رفعت) العبقري سيجد
حلاً بالتأكد .. ! »

كانت (إلهام) تصرخ .. تتراجع للخلف في هلع ..
وتتوسل إلينا :

« (مدحت) !.. أفل شيئاً !.. »

هاهى ذى حبيبة طفولتنا البديئة توشك على أن تلقى
حقتها ونحن عاجزون عن إيجاد حل مناسب .. ولكن ..
لماذا نجد حلاً ؟ .. إنه وهم جديد آخر من أوامها التي
لا تنتهى ...

نظرت للأخرين فوجدتهم أقل توتراً من أيا وقت
مضى .. لن نخدعنا هذه اللعينة مرة أخرى - (شيراز)
وليس (إلهام) طبعاً - إتسا سترك هذا البيت مهما
حاولت استبقاعنا ..

« (رفعت) !.. أرجوك !.. طفلاى ! »

ضحكت (شيراز) في تشفا :

« هكذا يا (إلهام) .. لا أحد يرغب في مجرد المحاولة ! »

اشتعلت سيجارة أخرى .. وشرعت أفكر على صوت الصراخ القادم من أعلى .. النار والتعابين .. الذناب .. كانت كل هذه أوهاماً .. لكن الأوهام التي اشتعلت فيها النار تلاشت فجأة .. النار تبدد الأوهام .. وهامى ذى سيجارتي مشتعلة .. و

(إلهام) هي التي وثبت بنا لدى خالي وجعلته يجبرنا على أن نقسم وبهذا انتهت علاقتنا بالبيت .. (إلهام) مزقتها الغيرة فاندفعت تمزق عرى الصداقة البرينة الوحيدة في حياة (شيراز) أو معاتها ..

(شيراز) عانت وحيدة دون أصحاب سنوات لا أعرف عددها .. وإن فهي تملك كل الأسباب كي تمقت (إلهام) ...

* * *

« أتم جميعاً هنا من أجلها .. لا أحد يريدني .. ولا أحد يعاين ! »

* * *

« مشكلتي هي أن (شيراز) لا تجد أصدقاء من سنها .. ما أسأؤكم يا أحبائي ؟ »

* * *

(إلهام) تتقدم نحو الحافة .. اللامبالاة على وجوه الأشقاء الثلاث .. وهنا فهمت .. وفي هلع صحت وأنا أتب نحو المكان الذي منسقط عنده :

« إن هذا ليس وهنا ! .. هذه هي (إلهام) حقاً .. وكل ما يحدث حقيقي .. لقد بددت النار كل الخيالات السابقة لكنني اشتعلت سيجارتي وظلت الصورة مستمرة ! »

« ولكن ... »

« أسرعوا ! .. »

وقبل أن تنفلق على شيء وقفنا جميعاً أسفل المكان الذي تقف عنده .. ومددنا أيدينا لأعلى في محاولة لا معنى لها لعمل شيء ما ...

وهنا تهشم السياج الذي كانت تستند إليه (إلهام) .. ولمحنا جسدها البدين بهوى فوق رؤوسنا كنيزك عملاق ..

* * *



لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم في ثوب (إهام) فتدلت ،
كالتريا ، من أسفل (الدرابزين) فوق رعوستا ..

١٠ - (شيراز) تتكلم ..

توقعنا الكارثة لكنها لم تحدث ..
وحين رفعنا رعوستا - في حذر - إلى أعلى وجدنا
أن الحظ لم يتخل عنا بعد ...
لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم في ثوب (إهام)
فتدلت - كالتريا - من أسفل (الدرابزين) فوق
رعوستا .. كانت تصرخ وتولول لكنها ظلت حية على
الأقل .. وقد صارت على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب
عوضا عن ثمانية !
الحمد لله العلى القدير ..
- « رفعت » ! .. إننى سأ ... أسقط .. »

كان طرف الثوب يتمزق - أو لعله الخشب - ببطء
شديد .. سمعنا صوته وكنا على استعداد هذه المرة
للتلقاها بين أذرعنا الممدودة .. صحيح أن محاولتنا قد
ألغت نهائيا آثار السقطة المدمرة لكنها كادت تمزق
عضلاتنا .. وسقطنا على الأرض جميعا شبه مهشمين ..

واننى لاتساعل عن كيف يكون الأمر لو أنها سقطت
من الارتفاع السابق فوق رءوسنا ؟ ..

نظرنا فوجدنا المسخ و (شيراز) ينظران لنا من
أعلى ..

صرخ (منحت) من حيث ارتقى على خشب الأرضية
ملوحا بقيضته :

« صيرا أيتها الشيطانة !.. لو وقعت فى يدى ! »
لم ترد (شيراز) بل استدارت مع المسخ بيضاء ..
واختفت فى الظلام ..

صاح (عماد) فى حق :

« (رفعت) !.. ارفع كعب حذائك عن عفى .. ! »
« ليس قبل أن نخرج كوعك من معدنى .. »
ووجدت ذراعا مشعرة تلف حول ساقى .. فصحت
فى حنى لشد :

« ذراع من هذه ؟ فليبعدا صاحبها عنى ... ! »
« أعتقد أنها ذراعى أنا .. كنت أظن الساق ساقى ! »
الخلاصة أننا استغرقنا بعض الوقت حتى نفهم حقيقة
وضعنا وكيئونتنا .. وحتى ننهض عنى أقدامنا ..
وحين وقفنا أخيرا - لاهئين مغبرين - كنا قد أركنا
ما حدث .. حقا كانت (شيراز) تحبنا ..

وحقا كانت بحاجة إلينا ..

لهذا - وحين تسببت (إلهام) فى انقطاعنا عن
المعجى - قاست (شيراز) سنوات مريرة من الوحدة ..
شنيعة حقا هى وحدة الأسياح بعيدا عن كل ما يربطهم
بعالم الأحياء ..

ولظروف لانفهمها بدأت (شيراز) تتحول الى مسخ ..
من ثم صمعت على الانتقام ممن كانت سبب عذابها
وحرمانها من الصحبة الأدمية ، وكان هذا الانتقام
المروغ من (إلهام) يتلخص فى جعلها تنفى نهايتها
المفرعة أمام عيون أصدقائها الذين لن يحركوا
ساقنا !..

سيظنون كل هذا وهما آخر بعد أن اعتادوا الأوهام
المماثلة .

أى تفكير مروغ !.. وأية قسوة !..

المشكلة الآن هى ماذا عسانا فاعلون بعد ذلك ؟
من الواضح أنها تملك إيداعنا فى أى وقت تشاء ..
وحتى لو هربنا - وهذا ليس صعبا - فمن يضمن
لنا أن (إلهام) لن تواجه كارثة أخرى ؟ .. ربما فى
صالون دارها أو الحمام أو حتى فى الطريق العام ..
ثم - الأدهى - من أدركنى أنها لن تضعنى فى

قائمتهما السوداء بعد ما أحبطت لعبتها الجهنمية ؟ ..
إن هذا منطقي وسأندعش لو لم تفعل ..
مشكلة الأشباح هي أن التنبؤ بما ينوون عمله
مستحيل ...
« أعتقد أن الوقت لا يسمح سوى بمغادرة
البيت .. »

« والغفز من على السور الحديدي المرتفع ؟ .. »
« لن يكون هذا عائقاً كبيراً .. سنجد حلاً وقتها .. »
وعدنا للمرة الثالثة نحاول تهشيم مصراع النافذة ..
تثبت جيداً ! .. هيه ! .. إنه يلين .. استمر يا (رفعت) ..
هيه ! .. هان ! .. هاهو ذا .. ! كراشى ! .. تهشم
الخشب واستطعنا أخيراً أن نرى نور النهار ونباتات
الحديقة المعنصرة .. ولكن وأسفاه ! .. ثمة ثلاثة
قضبان غليظة تلف حائلاً بيننا وبين الخروج .. نسينا
تماماً أمر هذه القضبان ...

صاح (مدحت) في هستيريا :
« لم تنته بعد .. سنهشم الباب الخارجى .. إنه
ثقيل لكننا خمسة ويمكننا استخدام قطع الأثاث لذلك .. »
نظرت إلى (إلهام) الدامعة وقد تشوشت ثيابها
واختلطت خصلات شعرها بالغبار والعرق .. كانت ذاهلة
تماماً .. فقلت في تودة :

« نحن أربعة فقط ... لا تنس ذلك .. »
وتعاوننا نحن الأربعة على حمل مائدة الطعام
العلاقة .. كان ظهري يوشك على أن ينشطر شطرين ..
وعروق عنقي تنفجر .. لكنى تماسكت ..
هيا بنا ! .. ! معا نركض - قدر الإمكان - نحو الباب
الضخم .. و.. هوب ! .. كانت الصدمة ضعيفة لكنها
خلخلت أجسادنا وسقطنا جميعاً على الأرض .. أما الباب
فلم يبد أدنى استجابة ! ..
« لا جدوى .. سنتحول إلى فتات قبل أن يتزحزح
هذا الباب ! .. »

هتف (عماد) في جنون :
« إن سنظل هنا حتى نموت جوعاً ! .. »
غمغمت في ضيق محاولاً أن أمنع نفسي من ضربه :
« لم أعد أعرف ما إذا كنا سنظل هنا أم لا .. كل
ما أرجوه هو أن تطبق فاك وتحفظ بأرائك لنفسك ! .. »
« حسن .. لا داعى لأن نلقد أعصابنا .. إن عاللتنا
لن تثبت أن تلحق بنا .. »
وعدنا تفكر في هم عن السبيل الأمثل للخروج من
هذا المأزق ... وما لبث (مدحت) أن هتف وقد شاربت
حماسه :

« لا بد أن مفاتيح هذا الباب في مكان ما .. ثم إننا لم نحاول الصعود لسطح البيت فلربما تمكنا من طلب الغوث ... »

« سيقتوننا أشباحا ويبتعدون مذعورين .. لكن الأمر جدير بالمحاولة .. »

ثم إننى تذكرت شيئا .. الدرجات !.. لقد حطمتها (شيراز) كى تمنعنا من الصعود لإيقاظ (إلهام) .. فكيف تصعد إذن ؟ ..

وهنا سمعنا ضحكة (شيراز) الرقيقة ... رأيناها واقفة على (الدرايزين) فى الطابق العلوى حيث كانت (إلهام) منذ دقائق .. وسمعناها تقول ميتسة :

« مازق شنيع .. أليس كذلك ؟ .. إن البيت حصين أكثر مما يبدو فى الواقع ! »

ومدت إصبعها السبابة والإبهام للأمام وفرقت بهما :
« ما هو الحل ؟ .. لا حل !.. ستحاولون كثيرا وقليلًا لكنكم ستعرفون ألا حل هنالك .. العبوا ! .. العبوا .. فهذا يسلىنى ! »

تقدمت فى توددة إلى أسفل المكان الذى وقفت فيه .. ورفعت رأسى صالحا ..

« تغيرت كثيرا يا (شيراز) .. »

« ومن لم يتغير ؟ »

« كنا نحبك حقًا .. »

« وبرغم هذا تخليتكم عنى .. »

« كنا مجبرين .. أقسم لك على هذا .. كنا أطفالا

لا نملك خيارا لنا .. »

أشارت نحو (إلهام) فى كبرياء حائق .. وفتفت :

« على الأكل كانت هذه الشيطانة تملك الخيار ..

وقد اختارت .. اختارت الشر والحقد .. ولهذا تحتم

الإس ... »

« كانت غيرة أطفال .. »

« التفتحة واحدة .. وهى أننى - أنا الطفلة البرينة

الصغيرة - أجبرت على أن أفلسى الوحدة .. وحدة

الأشباح المريرة .. الكل يخالفون منسى .. الكل

يتحاثوننى كالوباء ... وبدأ الشر يتبلور فى أعماقى

ويطفح على وجهى .. أتم لم تروا وجهى بعد .. لكنكم

سترون ما وصل إليه ... »

« أتأخذيننا جميعًا بجريرتها ؟ ! »

« إنكم أنقذتموها بكامل إرادتكم .. من ثم استحققتم

مصيرها .. »

« من قال إننى سأنتظر ساعة كاملة !! .. إن
المرح سيبدأ الآن حالا ! » .

فى اللحظات التى سبقت ما حدث بعد ذلك كان عطفى
يعمل بسرعة جنونية ..

الأسرة مات جميع أفرادها - بما فيهم الخدم - فى
أوائل هذا القرن .. فكيف ماتوا ؟ ولماذا عدوا للظهور
بعدها ؟ .. الفتاة فى حاجة لأصدقاء .. وهى تعانى
حرمات السنين ... لكن لماذا هذه الأيام بالذات ؟ ..
ولماذا قررت أن تتحول إلى مسخ ؟ .. لماذا انتظرت
حتى دنونا من سن الكهولة لتطاردنا ؟ .. ثم -
السؤال الأهم - أين ذهب باقى أفراد الأسرة ؟ .. أين الأم
والخادم ؟ .. إن نجاتنا تكمن فى الإجابة على هذه
الأسئلة ..

أشعر بذلك بكل جوارحى ..

وهنا صرخت (عبير) فى هلع كأنها ترى الشيطان :
- « انظروا ! .. » .

نظرنا - بالطبع - إلى حيث أشارت قرأينا ..

رأينا عيوناً حمراء تتلعب فى الظلام وسمعنا فحيحاً ..

تقدمت (عبير) لتقف جوارى .. وصاحت محدثة
(شيراز) :

- « (شيراز) ! .. نحن مستعدون لأن نعود أصدقاءك
وأن نحبك كما كان فى الماضى ... » .

ضحكت (شيراز) فى سخرية .. أقصى ضحكة
سمعتها فى حياتى :

- « لن يعود الزمان كما كان أبداً .. أمس كنتم
تحيوننى بتزق وبراءة الطفولة ولم تكونوا مضطرين ..
أما اليوم فأنتم تخشوننى .. وتحملون تراث البالغين
الفاسد ، ثم تقولون لى : لنعد كما كنا ... مستحيل
يا صغيرتى .. » .

تقدم (منحت) إلى الأمام جوارنا .. (كأنها مسرحية
سخيفة تقدمها إحدى فرق الأقاليم المسرحية حين يتقدم
كل ممثل إلى مقدمة المسرح ليقول عبارة ما) :

- « أينها الحمقاء ! .. لن يلبث ذوننا أن يبحثوا عنا
وهم يعرفون أين يجنوننا .. إن زوج (عبير) على
استعداد لأن ينسف الباب نسفاً بعد ساعة من الآن .. » .

- « ساعة من الآن ؟ » .

دوى صوت (شيراز) البارد القاسى .. وبثودة
أردفت ..

ولمحنأ في ضوء النهار المتسرب من النافذة المحطمة
أشخاصاً يتقدمون نحونا ومن الواضح أنهم يريدون
شراً ..

« أعوذ بالله ! » .

كذا صاح أحدنا - ربما أنا - وهو يلتصق بالآخرين
محموماً .. خمسة أطفال يرتجفون وهم يرون غيلاً
تحاصرهم ..

أه لو كان مسدسي معي ! ..

لن يجدى شيئاً مع هذه المسوخ لكنه - على الأقل -
سيجعل نهايتنا مشرفة .. تحسست جيبي بيدي .. و ..
غريب هذا ! .. إنه في جيبي .. ما هذا العبث ؟ ومن
الذي ... ؟ ! ..

صحت في الآخرين وقد بدأت أفهم ما حدث :

« لحظة يا شباب ! .. إن كل هذا ليس حقيقياً ! » .

نظر لي (منحت) في حيرة :

« تعنى .. مثل الأوهام السابقة التي رأيناها ؟ » .

« بل الأمر وهم في وهم .. الأمر كله هلوسة

جماعية نعيشها الآن ! .. » .

إن البيت بالفعل مسكون .. مسكون بطاقة هائلة تجعله

يعايننا .. » .

« و (شيراز) ؟ .. وانتقامها ؟ » .

« أعتقد أن (شيراز) وأمها والخادم .. وكل

شيء رأيناه وهم لا وجود له إلا في عقولنا ... » .

صاح (عماد) ولسان حاله يقول إنني جنتت أخيراً :

« وهذه الأشياء التي تهاجمنا الآن ؟ » .

صرخت بأعلى صوتي محاولاً تحريك هؤلاء الحمقى :

« تماسكوا .. فكروا في لحظاتكم السعيدة وفي

عائلاتكم .. اتسوا الفزع .. ولا يفكرن أحدكم إلا في

أصدقائه الآخرين وتكرياتنا المشتركة الحميمة ..

تمسكوا ! ..

« ليمسك كل منكم يد الآخر .. ولا يدع البيت

يهزمه .. » .

كان زئير الأشباح يتعالى وهي تقترب .. تكاد نشم

رائحة أنفاسها .. العرق يسيل على جباهنا وأيدينا

تنزلق .. لكننا نتمسك .. (عبير) تبكي .. و (عماد)

يرتجف كالورقة .. منظاري تندرج على أنفي لكنني

لا أجزؤ على رفعه حتى لا أترك يد (منحت) .. ويد

(إلهام) ..

« رافع يا رفاق ! .. استمعوا ! .. هأنتم ترون أن

الأشباح لم تستطع عمل شيء .. إن الوهم لا يؤذي .. » .

في دار (مدحت) جلسنا نرشف الشاي ونتناول طعام الإفطار ، على حين أخذت زوجته تداعب (إلهام) وتسرى عنها ...

قلت لهم مفسراً ما كان مني في البيت ؛ إنني بدأت أعتقد أن الأمر كله وهم منذ وجدت المسدس في جيبي برغم أنني لم أجده لحظة الدخول .. فسألت نفسي : أمن الممكن أن يكون المسدس في جيبي طيلة الوقت .. وأنني لم أجده لأنني (توقعت ذلك) ..؟ بمعنى آخر .. هناك قوة ما جعلتني أتخيل اختفاء المسدس برغم أنه كان معي من البداية ...

ثم سألت نفسي .. ماسر عودة (شيراز) لمطارنا بعد كل هذه الأعوام ..؟

لماذا نسينا ثلاثين عاماً ثم عادت تتكرنا ..؟ إن الأمر يبدو متناقضاً حتى بمنطق الأشباح .. هل حقاً رأينا شبح (شيراز) وأما أم أننا تخيلنا ذلك ..؟

ثم - بمنطق البشر والأشباح - هل خطأ (إلهام) القديم يستحق كل هذا العقاب ..؟ لا أظن ..

وفجأة ساد الهدوء .. فتحنا عيوننا ببطء لنجد مدخل البيت والمائدة وكل شيء لكن لا أشباح .. ولم تعد (شيراز) واقفة على (درابزين) السلم ..
- « الآن فكوا أيديكم ! » -

وأشعلت سيجارة على حين استرخى الآخرون على الأرض من حولي غير عابئين بالغبير .. كان الفضول يعترضهم ليقهمو ما حدث ..
- « والآن .. هلا فسرت لنا ؟ » -

انفترشت الأرض جوارهم ونفثت حلقة من التبغ ..
- « قبل أن أتكلم .. هلا نظرتم إلى الباب وأخبرتموني هل هو مفتوح أم مغلق ..؟ وهل درجات السلم مهشمة ؟ » -
- « هو مفتوح ..! ودرجات السلم سليمة تماماً .. » -

- « كما تركناها ؟ » -
- « كما تركناها ... » -
- « إذن أصغوا لما سأقول ... » -

* * *

إن قصة الشبح الطفل المحروم من الصحبة الآدمية لا تروق لى كثيراً ولا أعتقد أنها تثير كل ما حدث ...
إن .. لماذا لا تكون (شيراز) وأمها وغرام الطفولة .. و .. كلها خيالات ؟ .. مجرد أوامر عشناها بكل تفاصيلها حين أجبرنا الفضول على دخول هذا البيت ؟ .. من يدري ؟ .. لربما كان عددنا خمسة لا ستة كما ظننا .. ولربما كنا نلعب المساكاة ونثرثر وننشجر من أجل لا شيء .. ومع لا أحد ..

لقد صدقت (عيبر) حين قالت : إن البيت حتى ... هذا أمر لا شك فيه .. وهو المبرر الوحيد لكل ما رأيناه .. كان البيت يعوى طاقة نفسية هائلة قادرة على خلق مذات الرؤى لنراها جميعاً فى نفس الوقت .. والحقيقة التى غابت عنا هى أن اليباب ظل مفتوحاً ولم ينغلق .. لكننا جميعاً حسبنا أنفسنا سجناء ..

البيت جعل أطفالنا يرون (شيراز) وجعلنا نحن أيضاً نراها فى ديارنا ...
لكن (شيراز) لم توجد .. أو - على الأقل - لم تنصر شعباً ...

وأعتقد كذلك أن البيت هو المسلول الأول عن مقتل الأسرة التى كانت تسكنه قديماً .. فربما أغرقهم فى

وهم منا ، لم يفيقوا منه قط .. نحن جميعاً قاسينا الهلوس البصرية والسمعية وعرفنا كيف تبدو حقيقية .. (إلهام) قذفت نفسها من فوق الدرابزين لمجرد رؤيتها مسخاً وهمياً .. ونحن حطمانا ظهورنا محاولين اقتحام باب مفتوح من البداية .. وقضينا أسود ساعات حياتنا فى خيالات لا طائل منها ..

لقد نال البيت منا .. فهو بعد كل هذه الأعوام لم يزل طفلاً يعشق اللهو ويهوى أن يتلاعب بالآخرين ..
سألنى (منحت) وهو ينتزع لثافة تبغ من عيني .
- « وما سر هذه الطاقة الهائلة الكامنة فيه ؟ »

- « لا أدري .. لكن هذه الأشياء تحدث .. وغالباً ما يتضح أنه مبنى فوق مقابر قديمة اختلطت أساساته بعظام سكانها أو شيء من هذا القبيل .. »
- « يصعب التأكد من هذه النقطة ... »

- « السؤال الأهم هنا هو : لماذا أريد البيت أن تعود له ؟ .. لا أعتقد أنه اشتاق للعبث .. أعتقد أنه أريد أن يقدم لنا الحل لخلاصه .. إن البيت يريد أن يفنى ونحن فقط نعرف كيف ... »

- « النار ؟ »
ابتسمت فى ود وأشغلت قداحتى :

— بالفعل .. النار .. لقد ذابت كل الأوهام بمجرد
أن ظهرت النار .. »

وهذه هي الرسالة التي أراد البيت أن يوصلها لنا
حين أغرانا بدخوله .. وحتى لو كان اعتقادنا خاطئاً
فإننى أعتقد أن هذا البيت المشنوم يجب أن يباد تماماً ..
من أجلنا ومن أجل أطفال صغار سيدخلونه فى جيل قائم
ليعبوا مع (شيراز) أو واحدة أخرى ... »

تفكر (منحت) فى كلماتى برهة .. ثم قرب فمه من
أذنى وهمس :

« ليكن ولكن متى ؟ »

* * *

بعد هذا بيومين أتت النيران على البيت تماماً ...
يقول رجال المطافئ إن هذا تم بفعل فاعل تسلسل ليلاً
وسكب جالونات عديدة من (الكيروسين) .. ويقول
عابر سبيل إبه شاهد ثلاثة رجال أحدهم تحيل أصلع
واثنان متشابهان كالتوائم .. شاهداهم يفتحون البوابة
ليلة الحادث ...

لكن — والحق يقال — لم يشعر واحد من أهل
(المنصورة) بالحسرة على احتراق هذا البيت الذى
بخشاه الجميع ..

حتى مالك البيت — الوريث — وجد أخيراً الفرصة
لبيع الأرض بعد أن ينس تماماً من العثور على مشتر
لهذا البيت ...

فقط يقول الجيران إنهم سمعوا صوتاً غريباً كأنه
عساق ينن بينما السنة اللهب تتصاعد من البيت
المهجور ..

لكنهم لم يعلقوا أهمية على هذا ...

بعد هذا بيومين ودعت الأصدقاء لأعود الى القاهرة ..

سألنى (منحت) فى قلق :

« هل تظن أن النار كافية .. ؟ »

بخبت ابتمت :

« من يسرى ؟ .. على كل حال إذا لم تكن كافية

ستعرف ذلك فى القريب العاجل .. وليكون انتقام البيت
رهيباً ! »

« إذن .. فلترحل قبل أن أهتم وجهك ! »

وهكذا ...

عدت للقاهرة .. عدت بقصة غامضة أخرى أدونها
فى كراسة منكراتى وأحكيها لـ (هويدا) فى ليلة صيف
ساحرة ..

لكن الرعب هو قدرى .. وحياتى لا تستقيم بهذه
السهولة كما لا بد أنكم قد تعودتم ...
كان الذهب ينظرنى .. وينادىنى .. وكان محتماً أن
ألبى نداءه عالماً أنها قد تكون المرة الأخيرة ..
ولكن هذه قصة أخرى ..

.. رفعت إسماعيل

القاهرة ١٩٩٣

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN